تأملات الشباب حول العنف في لبنان ١٩٧٥-٢٠٢٥

مراجعة نقدية حول العنف والشباب في لبنان

أم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Federal Foreign Office

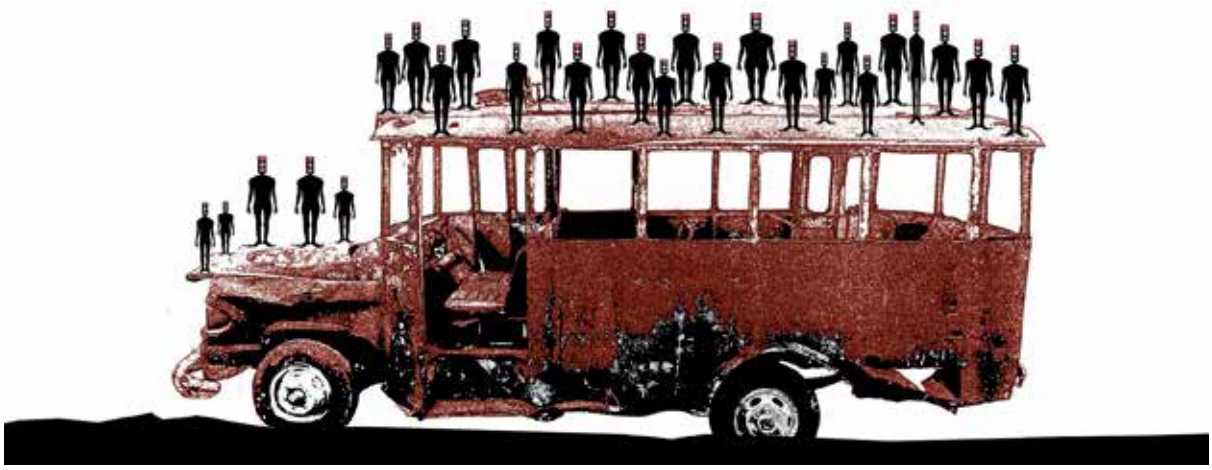

تأملات الشباب حول العنف في لبنان

١٩٧٥-٢٠٢٥

مراجعة نقدية حول العنف والشباب في لبنان

umam للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Federal Foreign Office

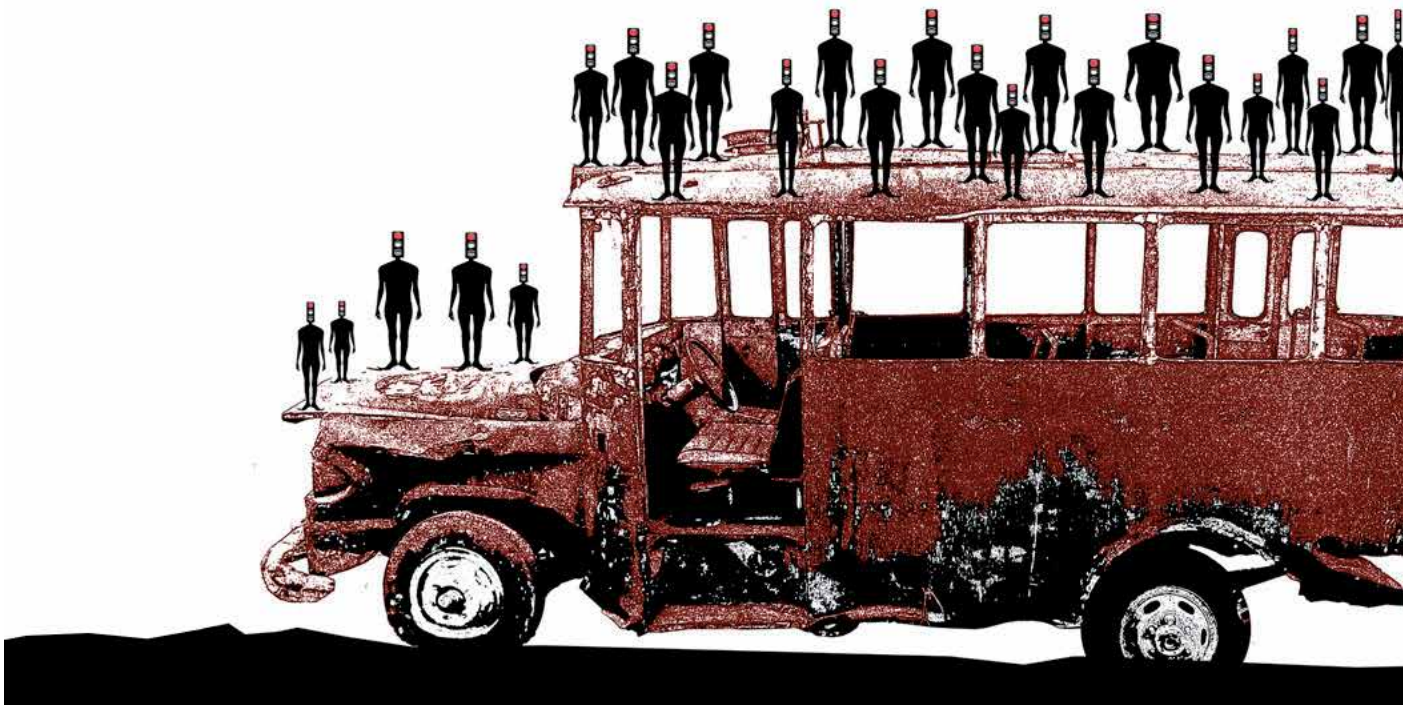

أُمم للتَّوثيق والأبحاث
٢٠٢٥
هاتف: ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١ + | بيروت ـ لبنان
www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org

تم إعداد هذا المنشور بدعم من وزارة الخارجية الألمانية عبر المعهد الألماني للعلاقات الخارجية (ifa)، ضمن برنامج التمويل (zivik).

تعبر الآراء والمواقف الواردة في هذا المنشور عن وجهة نظر المؤلف/ المؤلفين فقط، ولا تعكس بالضرورة مواقف أو آراء الجهات الداعمة.

العمل الفني: من إعداد حسام البقيلي

رصاص الأمس... صمْت اليوم

أليسيا طرّاف لَبكي

بيروت ... تلك المدينة التي لا تَنام، كانت تتنفّس الحياة في كل زاوية، تهمُس بالأغاني من نوافذ البيوت، وتضحك من داخل شوارعها الضيّقة، بيروت، عاصمة الأمل، ستّ الدُّنيا كما سمّاها العشّاق، لم تكن تدري أن الربيع هذا العام سيحمل في قلبه خريفًا مبكرًا.

خرَج الناس إلى أعمالهم ككل يوم، يحملون القهوة بيَد، والأحلام باليد الأخرى. كان الصباح عاديًّا... أكثر من اللازم.

لكن الزمن كان يُخبّئ المفاجأة... كان القدَر قد نفَد صبْره وقرّر أن يُعلن انقلابه.

دوّى الرصاص في الشوارع التي كانت تنام على صوت فيروز، تفجّرت الحرب من قلب المدينة التي كانت تُحبّ الجميع، بلا شروط.

في لحظة، تغيّرت الوجوه. أصبح الجار خصمًا، والحيّ مسرَحًا، والصمت رُعبًا يقطَعه صوت الانفجارات، تمزّقت الصوَر المعلّقة في البيوت، وتحطّمت الطفولة تحت رُكام البيوت، كانت تلك بداية قصة لم يختَر أحد أن يرويها، لكنها كُتبت علينا جميعًا.

قصة واقعية، كتَبها الزمن بالحبر الأسود، وزيّنها القدَر بتفاصيل لا تُصدّق، تُغرِق القارئ في بحر من المشاعر المتضارِبة: دهشَة، غضب، ألم، ثم سؤال كبير لا جواب له: لماذا؟

لم تكن الحرب الأهلية مجرّد صراع مسلّح، بل كانت تمزيقًا للنسيج الاجتماعي، وانكسارًا في وِجدان شعب حلُم بدولة عادلة فاستيقظ على وطنٍ مفخّخ بالطوائف والسلاح والانقسام. جُدران المدن ما زالت تحمل آثار الرصاص، كأنها تصرُخ في وجه كل مَن ينسى أو يتناسى: «من هنا مرّت الحرب، هنا كان الألم».

منذ عام ١٩٧٥ حتى ١٩٩٠، سقَط الوطن في فخّ الحرب، ولم يخرج منه كما دخل، كانت الحرب كالنار تأكل كل شيء... الصداقات، الجيرة، الثقة، وحتى الضحكة، صار لكل طائفة جدار، ولكل شارع حاجز، ولكل اسم هوية قد تكون قاتلة.

طفلٌ صغيرٌ ينام تحت السرير لأنه يخاف من القصف، وامرأةٌ تُصِمُ أذُنيها كي لا تسمع أصوات الرصاص، وشابٌّ ضاع مستقبله على أحد الحواجز، لأنه نطَق باسمٍ لم يعجب من يحمل السلاح. مآذِن احترقت، وأجراسٌ صمتُت، وقلوب الناس باتت قاسية، كيف يُشفى وطن إذا كانت ذاكرته تنزُف؟ كيف يتصالح مجتمع إذا كان كل فردٍ فيه يحمل رواية مختلفة عن الحرب نفسها؟

الكنائس والمساجد التي كان يُفترض أن تكون دُور عبادة، تحوّلت إلى خطوط تَماس، صار الانتماء الطائفي هو السلاح، والهويّة بطاقة مرور أو حُكم إعدام.

فكيف لوطنٍ نُسيت فيه قبور الشهداء، ولم تُعرف فيه مصائر الآلاف من المفقودين، أن يعيش سلامًا حقيقيًّا؟

رغم أنني لم أعِش الحرب الأهلية، إلّا أنني وُلدت

مـن رمادهـا، لـم أهـرب بيـن الرصـاص، ولـم أختبـئ فـي الملاجـئ... لـم أسـمع صـوت القذائـف، لكننـي سـمعت أُمّـي تصمُـت فجـأة حيـن يُذكـر التاريـخ، ورِثـت الخـوف فـي الأحاديـث الهامسـة، وفـي نظَـرات لا تثِـق بسـهولة، الحـرب لـم تزُرنـي، لكنهـا سـكَنت مـن حولـي... فـي الشـوارع المكسـورة، فـي الوجـوه التـي تُخفـي أكثـر ممـا تقـول، أحـبُّ بحَـذر، أفـرَحُ بخَجـل، وكأن الذاكـرة التـي لا أملُكهـا تُحذّرنـي مـن الأمـان... أنـا ابنـة سـلامٍ لـم يُولـد بعـد، أحـاول أن أعيـش فـي وطـنٍ مـا زال يتعلّـم كيـف يُسـامح...

لـم يكـن العنـف فـي لبنـان فقـط صراخًـا فـي الشـوارع، ولا رشَـقات رصـاص فـي الأحيـاء المتقابلـة كان ومـا زال وجهًـا يتبـدّل كل مـرة... مـرة بلبـاس الطائفـة، ومـرة بلغـة السياسـة، ومـرة بأرقـام الـدولار التـي تخنُـق الحيـاة مـن دون طلقـة واحـدة.

انتهـت الحـرب الأهليـة، قالـوا... لكـن أي سـلام هـذا حيـن يُولـد الطفـل وفـي قلبـه خـوف لـم يفهمـه بعـد؟

حيـن يكبُـر الشـاب فـي شـارعٍ مُغلـقٍ علـى طائفتـه، وتُعلّـم الفتـاة منـذ صغرهـا ألّا تثِـق بمَـن «لا يُشـبِهُنا»، فقـط لأن أحـدًا قـرّر أن الوطـن لا يسـع الجميـع. الجيـل الشـاب اليـوم لـم يعـرف صـوت المدفـع، لكنـه سـمعه فـي حكايـات الجـدّات، فـي ارتجـاف أيـدي الآبـاء وهـم يـروون مـا لا يريـدون أن يُـروى. نعـم، لـم يـرَ الحـرب... لكنـه وُلـد فـي ظلّهـا، وتربّـى بيـن جدرانهـا المتفسـخة. رأى كيـف يُصبـح القاتـل سياسـيًّا ثـم زعيمًـا ثـم مُخلّصًـا، بـلا حسـاب ولا اعتـذار؛ رأى وطنًـا يُنهـب أمـام عيـن الحقيقـة، وجيـلًا يُدفَـن حيًّـا بيـن الهجـرة والبطالـة والانهيـار، رأى أمهـاتٍ يبْكيْـن فـي صمـت، وآبـاءٍ يُتقنـون الصّبـر القاسـي، وأحلامًـا تـذوب فـي فنجـان قهـوة الصبـاح كأنهـا لـم تكـن...

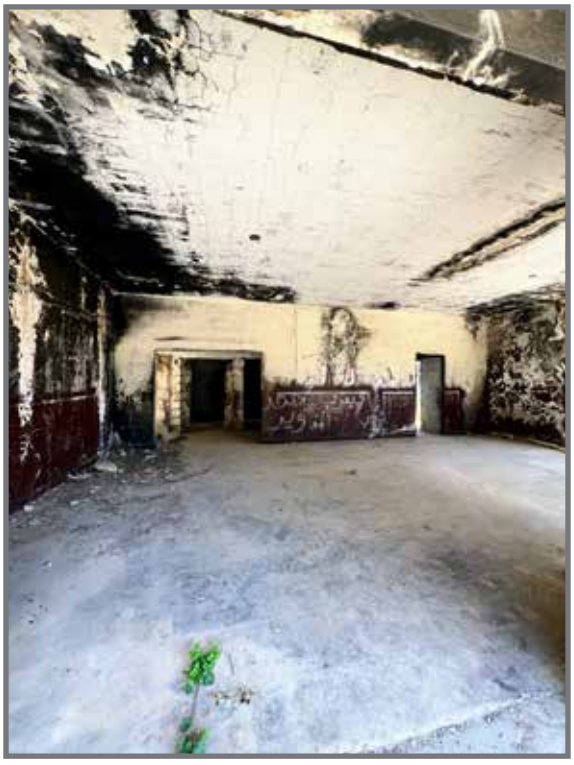

أمـا فـي المدرسـة، فالصّمـت أبلـغ مـن الـكلام. لا منهَـج موحّـدًا يشـرح مـا جـرى، لا سـردية وطنيـة تحمـي الحقيقـة مـن التشـظّي. يُطلـب مـن التلاميـذ أن ينسـوا حربًـا لـم تُـروَ لهـم أصـلًا، بينمـا هـي تَغلـي تحـت سـطح المجتمـع ذاكـرة لـم تُوصَـفَّ. وهكـذا، تُولـد أسـئلة مشوَّشـة: مَـن الـذي بـدأ الحـرب؟ مَـن هـو الـذي خـان؟ مَـن هـو العـدو؟ وتبقـى الإجابـات مُشـبعَة بالخـوف مـن الآخـر.

نحـن جيـلٌ لـم يعِـش الحـرب، لكننـا نعـرف صـوت الرصـاص. لـم نركـض إلـى الملاجـئ، لكننـا نرتجِـف مـن خبـر عاجـل علـى شاشـة التلفـاز. لـم نـودّع أحبابنـا علـى الحواجـز، لكننـا نشـأنا علـى قصـص ودّعـت فيهـا الأمهـات أبناءهـنّ ولـم يعُـدن. نحـن جيـل مـا بعـد الحـرب، لكـن الحـرب لـم تتركنـا نكبَـر بسـلام. فـي لبنـان، الحـرب الأهليـة انتهـت، لكـن لا أحـد أعلـن الحـداد. لـم نَدفُـن ذاكرتنـا، بـل خبّأناهـا.

حمَلها الآباء في صوتهم المرتجف حين يُفتح الحديث عن «تلك الأيام»، وفي نظرات الأُمّهات حين يُذكر اسم حيٍّ معيّن أو شارعٍ خَسِروا فيه شخصًا أو بيتًا.

في بيوتنا، كانت القصص تبدأ دائمًا بجملة تُشبه: «كانوا يقتلونا»، وتنتهي بصمتٍ طويل، يعلّق في الهواء كجرَس إنذار لا يتوقف. كيف لنا أن نكبر دون خوف، ونحن نُربّى على الحذَر؟ كيف نبني وطنًا واحدًا، ونحن علينا أن ننتبه من «الآخر»؟ لم يكن هذا عن حقد، بل عن جُرح. عن خوفٍ كبير لبسَ شكل الحِكمة: «لا تثِق بأحد»، في الظاهر الكراهية ليست دائمًا صراخًا أو شتيمة. أحيانًا تكون مجرّد جدار نفسي بينك وبين الآخر، تبنيه ببطء. وها نحن اليوم، جيلٌ يرِث الحروب دون أن يخوضها، يعيش في ظلِّ ذاكرة لم يختَرها، ويحاول أن يكتب صفحة جديدة من كتابٍ قديم، لم يُختم بعد... لكن ربما، فقط ربما، إذا تجرّأنا على الكلام... على السؤال... على الاستماع إلى روايات الآخر، يمكن أن نكتب هذه الصفحة أخيرًا. لا من أجل أن ننسى، بل من أجل أن نتذكّر بشكلٍ جديد. بشكلٍ يُشفي لا يُمزّق...

بعد الحرب، لم يعد العنف على شكل قذائف، بل تحوّل إلى رصاص صامت ومقصود. اغتيالات لشخصيات فكرية، سياسية وإعلامية شكّلت خطوات صغيرة في طريق جهّنمي: كلما حاول أحد أن ينكأ الجُرح لينظّفه، أسكَتوه. كان كل اغتيال رسالة. لا إلى القتيل فقط، بل إلى من يُشبهه؛ إلى من يُفكّر بالكلام، أو بالتمرُّد، أو بالمحاسبة. نحن جيلٌ نشأ على هذه الرسائل. كلما بدأنا نؤمن بالتغيير، جاء اغتيال ليقول لنا: «هذا ثمن الكلمة»! فكيف نصدّق أنّ العدالة ممكِنة، في بلد تُطفأ فيه الأصوات بدَل أن تُحمى؟ كيف نثِق بدولة، يخاف أبناؤها من التعبير أكثر مما يخافون من الحرب نفسها...

في تشرين الأول ٢٠١٩، انفجر الصوت المكبوت. خرَج آلاف الشابات والشبان إلى الشوارع، يهتفون بكلمات بسيطة لكنها متأصِّلة، كانت تلك الصرخة لحظة نادرة من الوعي الجَمْعي، حيث تلاقى اللبنانيون على وجَع مشترك، لا على هوية طائفية، لكن النظام لم يُسقط سلاحه، بل بدَّل شكْله. واجَه الانتفاضة بالقمع، بالتخوين وبمحاولات زرع الفتنة الطائفية من جديد. تحوّلت الاحتجاجات السلمية إلى ساحة مواجهة مفتوحة، استُخدمت فيها كل أدوات الترهيب: من الغاز المسيِّل للدموع، إلى الرصاص المطّاطي، إلى الاعتقالات التعسُّفية.

كانت تلك الصرخة، رغم بساطتها، زلزالًا في بلدٍ اعتاد الصمت. انتفاضة شعبية عابرة للطوائف، عابرة للخوف، تُطالب بشيءٍ لم يعرفه لبنان منذ عقود.

آب ٢٠٢٠، ليس مجرّد رقمٍ في التاريخ، إنه جُرح مفتوح في قلب المدينة... انفجار المرفأ لم يكن «حادثًا» عابرًا، بل نتيجة تراكم الإهمال، الفساد، واللامبالاة، مئات القتلى، آلاف الجَرحى، أحياء سُوِّيت بالأرض... ومع ذلك، لم يُحاسب أحد حتى الألم في هذا البلد... البلا عدالة.

وفي نهاية كل هذا الكلام، يعود السؤال ليتسلّل إلى القلب بهدوء موجِع، هل ستظلّ هذه النُدوب تلاحق مَن لم يُولدوا بعد؟ هل نورّث أبناءنا الخوف كما ورِثناه؟ هل نتركهم يكبرون في بلدٍ يتذكّر الحروب أكثر مما يحلم بالسلام؟

نحن، جيل الشباب، نقف على جسر بين التراجيديا والرجاء، نحن أبناء الحرب دون أن نحمل

سلاحًا، وأبناء السِّلم دون أن نتذوَّق طمأنينته لكننا أيضًا أبناء الرجاء، لأننا نطرح الأسئلة التي خاف غيرَنا من طرحها، ونحلم بما لم يجرؤ كثيرون على تصوِّره، أم نجرؤ نحن، الجيل الذي رأى الخراب وسُمّي «ما بعد الحرب»، أن نقول: كفى؟

هل نختار الصمت؟ أم الغضب؟ هل نُهاجر جميعًا؟ أم نحاول أن نبني، حتى فوق الركام؟ ما دَورنا نحن، في زمنٍ كل شيء فيه مكسور؟

ربما دَورنا أن نرفض العادي، أن نحاسب، أن نسأل، أن نكتب، أن نُحب رغم كل شيء... ربما دَورنا، ببساطة، أن نؤمن بأن هذه الأرض مهما نزَفت، تستحقّ مَن يحاول أن يضمّدها، لا أن يهرُب منها.

جيلُنا لا يملك كل الأجوبة، ولكننا نملك أن نسأل بأمَل، أن نحلَم بسلام مستحَق، وأن نحب هذا الوطن حتى لو كان جرحًا مفتوحًا ونازفًا.

لُبنانيٌّ صُنِعَ في الحرب

جوزيف خوري

في كلّ مرّةٍ تبدأ جدّتي بعبارة «في ذاك الزمان»، أدرك أنّها قصّة عن زمن الحرب. هي تبدأ بالخبر، وأنا أُكمله، وتسألني متعجّبة: «كيف علمت ما كانت النهاية؟» أقول لها: «بيني وبينكِ خمسون عامًا، ورغم أنّ أحداث الحرب سابقةٌ على مولدي، لكنّني بحثت عن كلّ تفاصيلها، وعاصَرت أحداثًا مشابهةً في العقدين الأخيرين من الزمن، أبرز ما تكرّر فيهما هو مشهد الحرب».

إحدى القصص التي تلَتها عليَّ في أحد الأيام كانت عن تهجير العائلة من بلدة الجرمق الجنوبية في قضاء جزّين: تهجّروا على وقْع صوت البندقية وتحت مستوى رصاص القنّاصة، رحلوا هم وجيرانهم إلى بلدات أخرى، وتخلّلت رحلتهم ساعات رُعبٍ متواصلة، يأملون بالوصول فيها إلى أيّ وجهةٍ، أحياء. ما يتذكّرونه يومذاك هو استقبال الناس للمهجّرين بإلفه وإنسانية، واحتضانهم في مساكنهم ريثما تعود الأمور إلى طبيعتها... هذا إن لم يُصبح أولئك المستضيفين بدورهم مهجّرين لاحقًا. وبالفعل هذا ما حصل عندما امتدّت الحرب إلى شتّى البلدات، فعائلتي انقسمت ما بين المتوجّهين إلى العاصمة بيروت وضواحيها، حتى صاروا غُرباء حيث ذهبوا واستقرّوا، ومنهم من توجّه إلى مرجعيون – البلدة الحدودية في الجنوب – حيث لم يكن الوضع أفضل، مرجعيون التي سكَنوها حتّى اليوم، عانت من الحروب والأذى، تحديدًا منذ أحداث ١٩٦٩ واتفاق القاهرة.

وكما قالت جدّتي: «كان كلّ يومٍ هادئٍ يثير الذُّعر فيّ لأنّني أعلم أنّ هناك أمرًا بشعًا سيحدث لاحقًا». كون جميع الجرائم أصبحت متاحة في زمن الفوضى، لقد عاش الناس آنذاك أيّامًا بغيضة جدًّا، وإن لم تهرب من وابل الرصاص، قد تتعرّض إلى الخطف. ذات يومٍ اختُطف أحد أفراد العائلة، وهو أبٌ شابٌّ لثلاثة أولاد. البعض يقول قُتل فور اختطافه، والبعض الآخر قال إنّه كان مسجونًا في سوريا، في النتيجة لم يُعثر عليه أبدًا. وأقسى الحوادث التي أخبرتني عنها جدّتي كانت يوم قُتل أخاها الفتيّ بالرصاص خلال فترة شاع فيها القتل على الهويّة، وأي ازدواجيّة كان يعيشها القاتل آنذاك! فهو بدوره، في نظر آخرين، آخرين مختلفين عنه بالهويّة ضحية محتّمة بسبب اختلاف هويته. عن أي تهجيرٍ نتكلّم إذًا، إذ لم تكن لا الجرمق ولا جزّين ولا مرجعيون وغيرها مكانًا آمنًا لأحد.

ولعلّ أغرب صورةٍ تراودني هي: هل سأُجالس أحفادي يومًا وأُخبرهم بدوري عن حكاياتي في الحرب؟ فأنا أيضًا مررت بتجربة أولى في حرب تمّوز ٢٠٠٦، وأنا أبلغ من العمر تسع سنوات. توجّب عليّ التصرّف برشدٍ أمام أخي الأصغر منّي والذي لم يكن قد دخل المدرسة بعد، فكان درسه الأوّل آنذاك أنّنا إن سمعنا صوت الطيران يقترب وشعرنا بهديره، فيجب أن نركض إلى زاويةٍ محصّنةٍ من البيت. ويكفي تذكّر كم من ليلةٍ اختلطت فيها أنوار النجوم مع أضواء القذائف المنفجرة في سماء مرجعيون، فما عاد اللّيلُ ليلًا إلّا بعد حين. البعض يتذكّر «عناقيد الغضب» عام ١٩٩٦. نعم صرنا نُعطي

أسماء للحروب... والأخطر من تسميتها هو توريثها للأجيال، فلماذا نملأ أذهانهم بهذه المصطلحات؟!

صرنا نتجنّب إضاءة الأنوار في العتمة، لأنّ النور في معجم الحرب هو إشارة لوجود حركة غريبة. ومنزلنا لم يعد ملائمًا للسكن، فانتقلنا إلى منزل أقربائنا، ننام عشرون فردًا في زقاق البيت. تخيّلتُ صوت جدّتي تقول: «شعرتَ بما شعرنا؟». كان القرار الصعب في اليوم التالي أن نتّجه إلى العاصمة بيروت. سِرنا بموكب سيّاراتٍ مغطّاة براية السلام البيضاء، وطالت رحلتنا إلى بيروت ثماني ساعاتٍ متواصلة. أعلم شيئًا واحدًا في ذاك اليوم، لم يكن هناك رصاصًا طائشًا لكنّني أخفضت رأسي كما أخبرتني جدّتي.

لم تكن الأشهر اللاحقة على هذه الحرب مريحة، خاصّةً أن التوتّر الأمني على الحدود كان أمرًا متوقّعًا في كلّ يوم، إمّا على خلفيّة إطلاق النار أو خرق حدوديّ، فتتسع رقعة الخوف من عودة الحرب مجدّدًا. وأحيانًا كثيرة ينتهي اليوم الدراسي قبل أوانه، ويُسارع الأهل إلى جلب أبنائهم من المدرسة خوفًا من تطوّر الأحداث. إنّها المرّات القليلة التي نحبّ فيها الحصّة الأخيرة ونريد إكمالها، لا أن نرحل باكرًا دون أن نعرف إذا ما كنا سنعود في اليوم التالي.

كنّا ونحن صغارًا نعتقد أن الحرب موسمية، فانتظرنا في كلّ عامٍ ما إذا كانت ستندلع حربًا جديدة. لا أعلم لماذا هذا الانتظار، ربّما لنهيّئ أنفسنا معنويًا أو لنتحضّر من حيث الغذاء والمسكن والدواء في حال حُوصرنا وطالت مدّة الحرب، خاصّة أننا لا ندرك تمامًا موعد اندلاعها. وهذا ما لمَسته عند بداية حرب غزة في السابع من تشرين الأول ٢٠٢٣، وانخراطنا في لبنان في الحرب في اليوم التالي، لكن هذه المرّة، لا ندري إذا كان شعور الخوف

من أرشيف «أمم»

يجهل قدوم الحرب، أو أنّنا اعتدنا عليه من معارك سابقة. عشنا في المنطقة الجنوبية الأشهر الأولى من الحرب كأنّ شيئًا لم يكن، بالطبع تضرّرت المهن وتوقّفت المدارس ونزحت بعض العائلات، لكن معظمنا لم يترك بيته في المرحلة الأولى.

طالت هذه الحرب مقارنةً بحرب تمّوز ٢٠٠٦، اقتربنا من بلوغ العام الأوّل منها ومآلها لم يكن واضحًا بعد. لكن مع ارتفاع وتيرة الأحداث إلى مستوى أخطر وأصعب، راودتنا ذكريات حرب تمّوز. والابن البكر الذي أظهر نفسه راشدًا في المرّة السابقة، عليه أن يُعيد الكرّة.

بما أنّني أعمل في العاصمة بيروت، انقطعتُ عن زيارة الجنوب، وفكّرتُ برشدٍ أنّني إذا وصلتُ إلى منزلي في مرجعيون لن أكونَ ذا فائدة لوالديّ

هناك وأنا معهما تحت الحصارين البرّي والجوّي، يعانقان عواميد البيت بسبب القصف المحيط بهما، يقضيان ساعات الليل مستيقظَين على هدير صوت جنازير الدّبابات تقترب من البلدة. أمّا أخي فبقيَ معي في بيروت، وطبعًا تقع عليَّ مسؤولية العناية به. وكم من ليلة قضيتها في مواجهة سيْل عواجل الأخبار لأعرف ما إذا كان القصف قد اقترب من منزلنا، ولأطمئنّ على أهلي أو أسأل مَن في البلدة عنهما. انتهت الحرب الأخيرة عندما أصبح في إمكاننا العودة إلى منزلنا واللقاء مع أهلنا وأحبابنا، عُدنا إلى بلداتنا عند إعلان وقف إطلاق النار، لكن الحقيقة أننا لم نتركها يومًا في مخيّلتنا وعشنا الحرب من بعيدٍ وكأنّنا في وسطها مباشرةً.

من جدّتي إلى والديّ فصلٌ من الحرب، صُنعت فيه شخصية اللبنانيين المقاومين الذين يرغبون الحياة، ومن والديّ إليّ فصلٌ مماثلٌ صُنعنا فيه كشباب لبنانيّين نحارب لنبقى حيث نحن. تشاركنا عبر تاريخنا مواكب السيارات النازحة بين المناطق، والبيوت الضيّقة التي عجّت بالمهجّرين من كل جهة، وأصوات الدبابات والقذائف والطيران والرصاص. ونسأل بعضنا اليوم، أهذا ما نريد أبناء الغد أن يتشاركوه معنا؟

لعلّ الجيل الجديد لم يعد يكترث لأخبار الماضي، وهذا حقّه برفض تركةٍ من عنفٍ ودمار. لكن ذاكرتنا الجماعية تمتدّ عبر التاريخ، فلا فائدة من تناسي الماضي ودفن أحداثه، تلك الأخيرة التي نستقي منها العِبر ونترجمها حاضرًا ومستقبلًا. أنا بدوري آمنت في صغري أنّنا سنبقى في ديارنا سالمين ومسالمين، كما أؤمن أنّني خضتُ هذه التجارب لسببٍ أو غايةٍ، فأنتجت تلك الأحداث شخصًا محاربًا رغم التحديات، ولولاها لما كان يكتب تلك السطور. رغم المعارك حولنا، نختار معركتنا بأنفسنا ونواجه فيها معوّقات الاستمرار والبحث عن الأمل في الحياة.

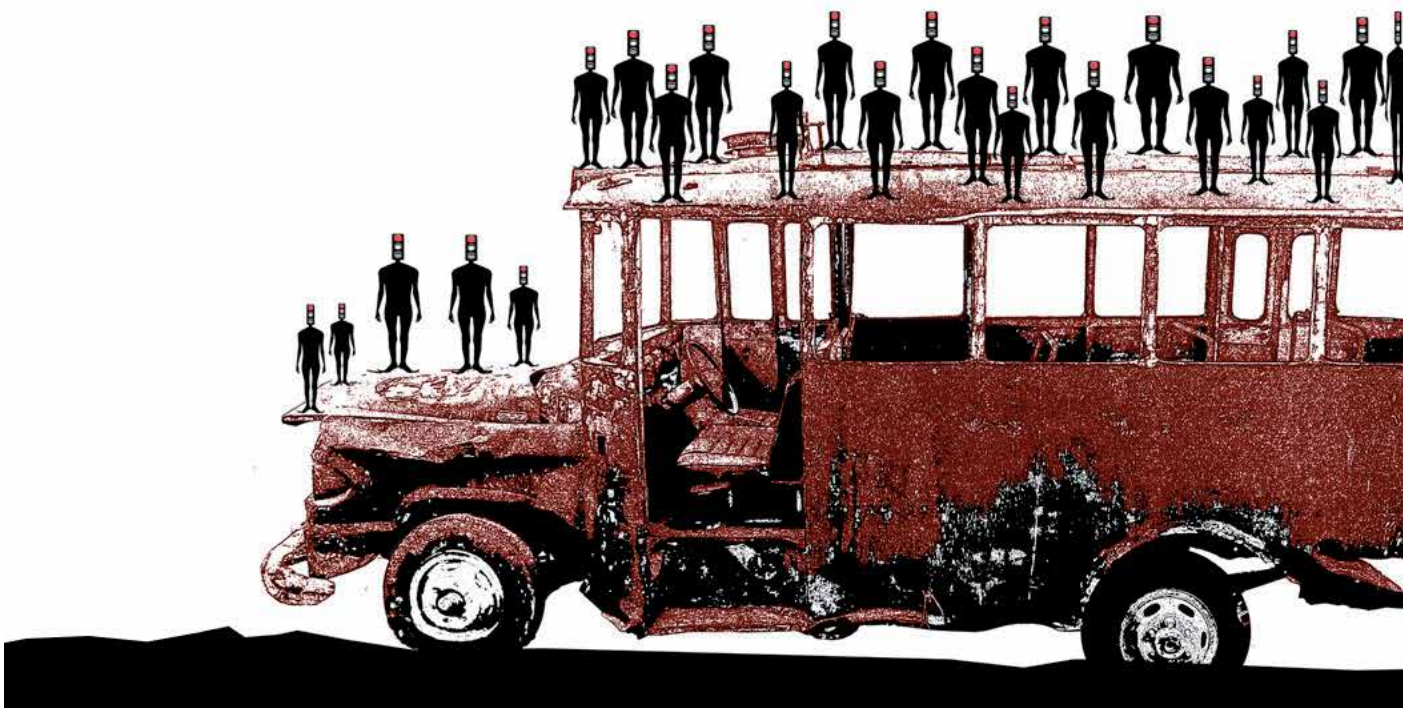

رَحَلْنا نَحْنُ، وبَقِيتُمْ أَنتُمْ

جيسّي الحاج

صار وقت إنّي أُكتب، بسّ كنت كل الوقت عم فكر بأيّ لغة لازم أُكتب. عربي؟ فرنسي؟ أو إنجليزي؟ ما بعرف! لأن بْهيك بلد، حتّى اختيار اللّغة اللّي بدي عبّر فيها عن أفكاري بِصير مش بسّ خَيار ثقافي، إنمّا خيار سياسي كَمان. بسّ في شي جوّاتي كان عم يقلّي «اكتبي بلغتك الأُم»، اللّغة اللّي بتشبهك وبتشبهُن. يمكن اللّغة هي الشي الوحيد اللي بعده بيجمعنا، بسّ كمان مش كتير مأكّدة. فما بعرف، خلّينا نبلّش من هون، بركي بنهاية هالمقال منلاقي إذا اللّغة بتجمعنا، أو اللّي بيجمعنا شي أعمق.

هلأ صار فينا نبلّش!

انتهت الحرب اللّبنانية بالألف وتسعمية وتسعين (1990)، صار في وقف إطلاق نار، الدبّابات انسحبت من الشوارع، والنّاس تخطّت كل شي صار بهَل خمستعشر (15) سنة، أوعالقليلة، هيك خبّرونا. بسّ بالنّسبة إلنا، جيل ما بعد الحرب، الجيل اللّي ما عاش الخطف والقتل عالهوية بسّ عطول حسّ بوجودهُن، الحرب ما انتهت، بسّ تغيّر شكلها. تسلّلت على لغتنا، تسلّلت على مخاوفنا، تسلّلت على زوايا بيوتنا. ورِثْنا جروح عميقة كتير، بسّ ولا مرة شفناها عم تنزُف. غريب هالشّعور، هنّي انخطفوا، ونحنا إللّي ضعنا، هنّي انصابوا ونحنا اللّي نزَفنا، هنّي عاشوا، ونحنا إللّي متنا. شفتوا كل شي عم بوصفه؟ هيدا هو شعور إنّو نعيش من دون نهاية حقيقية.

النهاية الحقيقية بعد الحرب هو إنّو يتم التعامل مع الجروح النفسيّة بشكل مناسب ويصير المجتمع قادر يعيش بسلام بعد ما كان كل واقعه عبارة عن عنف واضطرابات. النهاية الحقيقية يعني «محاسبة».

خلِقت بعد سنين من إنتهاء الحرب، ولا مرّة اضطّريت أهرب من ملجأ لملجأ، أو ودّع خيّي كأنّه ما رح إرجع شوفه مرّة تاني، أو حتّى أخزق بطاقة انتمائي السياسي وأبلعها ع شي حاجز، بسّ عطول كنت عم عيش مع صدى هالأمور. كبِرت عم بسمع جُمل متل «بأيّام الحرب» بصوت شبه مخطوف، وعطول هيك بجُمل مش كاملة. أهلي، عيلتي، أساتذتي... كلن لمّا كانوا يحكوا عنها، كانوا يحكوا بنفس الطريقة، شي عاشوه بسّ ما قدروا يشفوا منه أو يتخطّوه. أول ما يبلشوا يحكوا، دغري يرجعوا يسكتوا، وهيدا الصّمت كان أقوى من أي قذيفة. هلأ هني عطول كانوا عم يخبّرونا عن الحرب، بسّ مش بالطريقة اللّي منتخايلها. تخيّلوا إجا حدا خبّركن قصة، خبّركن عن البطل وخبّركن عن الشّرير، وصار يحكي عن أحداث وأحداث. بسّ فجأة، إجا حدا وحرَق ورقة النهاية، بطّل في نهاية وبطّل في جواب لأسئلتكُن، بِقي بسّ الفراغ. شي مِزعج صح؟ إي هيدا شعورنا نحنا يلي خلِقنا بعد الحرب. عم نعيش على أنقاض سرديّة ما انكتبت حتّى، لأن بكل بساطة، بعد اتّفاق الطّائف، إختُصر السّلام بكلمة وحدة: «عفا الله عمّا مضى»، وهو لا الله عفا، ولا الماضي مضى.

قصة حزينة ومؤلمة ما في إلها نهاية وما إلها جواب. والمؤلّفين؟ عادي، بعدهُن عايشين حياتن

بيناتنا، عم يكتبوا كتاب تاريخ جديد، ونحنا بقينا علقانين بالصّفحة اللّي احترقت، عم نفتش عَنِهاية مش موجودة. والمؤلم أكتر هو غياب ذاكرة جماعية نتذكّر من خلالها. كل طايفة عم تقرأ بالكتاب تبَعها، وكل ضحية عندها شريرها، بسّ عطول ما في نهاية. تاريخنا كله مجزّأ ومشتّت على أسس طائفية. كان بدنا بسّ رواية موحّدة وحقيقة مشتركة نِحزن عليها أو نِشفى منها، و للأسف هويّتنا كلبنانيين صارت متل هالتّاريخ، مجزّأ ومش مفهوم.

من أرشيف «أمم»

المشكلة أنّه ما صار في اعتراف. لا سمّينا الضحايا ولا سمّينا اللي قتلوهن. ليش ما عملنا عدالة انتقالية؟؟ ليش ما صار في محكمة؟؟ كيف يعني اللي عملوا الحرب شَلْحوا تياب الميليشيات، لِبسوا البدْلات، وصاروا زُعما وحكّام دولة؟؟ لك هيدي مكافأة علنية. وعادي، إللّي راحوا، خلَص، راحوا، وبقيوا بسّ صورة على شي حيط بيت، إمّ انكسر قلبها وانتهت حياتها بعد ما انتهت حياتُن.

وهَيدي إحدى نتائج غياب المحاسبة: إعادة إنتاج أُمَرا الحرب كأبطال وطن. كيف معقول الضحية تحترم قاتلها لما يصير بموقع سلطة؟ كيف بدو ينبَنى ثقة مع نظام ما اعتذر أصلًا عن كل شي عملُه، لأ وطلَب منّا نسكُت كمان.

خلّينا نحكي شوَي أكتر عن نتائج غياب المحاسبة بعد الحرب، وكيف أدّى هيدا الغياب لجعل لبنان يعيش بسلام سلبي بعيدًا عن الوحدة الحقيقية والإصلاحات المنشودة.

غياب العدالة خلّا ذاكرة الحرب ملك للسياسيين، بِحرّكوها وقت ما بدُّن، ووقت تصير خطر عليهن، بيدفْنوها. الشّي اللي صار بعد انتهاء الحرب هو سلام هشّ، قائم بسّ على وقف إطلاق نار، لا على المصالحة ولا على الإعتراف ولا على المواجهة.

اجتماعيًا، انقسَمْنا أكتر. كل طائفة كتبت روايتها الخاصة عن الحرب، وبيتنا بطّل يشبَه بيت الجيران. صُرنا مجتمع عم يعيش سلام هشّ، سلبي، وخالي من المصالحة الحقيقية. لا تصالحنا مع الماضي ولا واجهناه، كرمال هيك، بقي فينا خوفنا من الآخر وانعدام الثقة وصارت الطوائف تبني جدران وهمية. لك حتى سكوتنا مش سلام، قنبلة موقوتة ما منعرف أيّ ساعة بتنفجر. الطائفية السياسيّة صارت هى السّمة الرئيسيّة للنظام، بدل ما تكون العدالة الانتقالية أداة لبناء الدولة على أُسس مدنيّة. والطوايف بدل ما تتقارب، زاد تمسّكها بنفوذها وصارت الإنقسامات الطائفيّة أكتر. النتيجة كانت إنّو السياسة اللّبنانية إنبَنت على المصالح الطائفيّة مش على المصلحة الوطنية، وبالتّالي افتقرنا لهوية وطنيّة موحّدة.

أما على الصعيد الاقتصادي، ساهَم غياب المحاسبة بتعميق الفِجوة بين الطبقات الاجتماعية لأن النظام السياسي اللّي نشأ بعد الحرب كان بيفتقر

للآليات اللّازمة لإعادة بناء الإقتصاد اللّبناني بشكل سليم. يعني بدَل ما يصير في استثمار بمشاريع تنمويّة على أُسس عادلة، راحت أغلبية الموارد المالية لجيوب السياسيين، وهيك، استمرّت كمان سياسة المحسوبيّة، الشي اللّي أدّى لتفاقم الفقر والبطالة. أمّا عن قطاع الخدمات العامّة، فحدّث ولا حرَج. تدهورت بشكل كتير ملحوظ بسبب الفساد والمحسوبيات اللّي هيمن على هالقطاعات، فصار الإستثمار بهيدي الخدمات أقل أهمية من المحافظة على شبكة العلاقات السياسية اللي بتضمن بقاء الفاسدين بالسلطة.

أما علينا نحنا الشباب، فغياب المحاسبة خلّق عنا فجوة كبيرة. برجع بقول نحنا ما عشنا الحرب بطريقة مباشرة، بسّ كِبرنا ببلد ما كان يخبّرنا الحقيقة، ما سمِعنا اعتراف وما شفنا عدالة. كيف يعني هيدا مش منّا ونحنا مش منُن؟؟ ليش مين هنّي ومين نحنا؟ هيك؟ بهالسهولة يعني؟ أغلب الشباب بدل ما يربوا على شعور بالانتماء لوطن موحّد، تربّوا على انقسامات طائفية وخطابات سياسية. طيّب كيف بدُّن يؤمنوا بدولة إذا الزعما نفسهن شاركوا بخرابها؟ كيف بدُّن يتخيّلوا المستقبل إذا الماضي اللي هو ماضي بعدو مجهول؟ هيدا الشي زرع عنا جوّ عام من فقدان الثقة بالنّظام وبالمؤسّسات وبالمستقبل ككل. صرنا شايفين لبنان بلد مش قادر يعطينا أمل وصار الحلم عند كتار الهجرة، مش التغيير، لأن ببساطة شو بدنا نغيّير بنظام لا حاسَب ولا اعترف؟

بِغْضَب أوقات... بِحقُد... عشي ما بعرف شو هوّي، بوقَف هيك وبطّلع فيهن. نفس الوجوه، إنو نفس الخطابات ونفس الأكاذيب. هنّي نفسن اللّي سفْكوا دمّنا وفَرجونا الجحيم بعيون أهلنا، هنّي ذاتُن صاروا زُعمانا. بنوا مجدُن على دمّنا ومن صرْخات أمّهاتنا. لما شوفهن عالشّاشات، متربّعين عكراسي الحُكم بتختنق روحي. كيف قِدروا؟ كيف بعد كل اللّي صار من فساد وسرقات وخراب، إلهن هيبة ودولة وإعلام؟ كيف يعني الوجوه اللّي زرعت الحرب صارت نفسها رموز «الاستقرار»؟ يمكن غضَبي مش بسّ إنّو ما تحاسبوا، لأ بل لأن كوفئوا كمان وصاروا زُعما.

نحنا جيل ما بعد الحرب، ولاد الصّمت، ما عنا رواية، وما منعرف الحقيقة. كل شي منعرفه انه انتهت الحرب بلا ما تنتهي. سكَتت البواريد، بسّ الأصوات اللّي شعّلتها ضلّت عم بتصرّخ. حسّسونا إنّو الماضي عيْب لازم نخبّيه، مش إنّو جرح لازم نداويه. محكومين من نفس الوجوه اللّي تقاتلت، تصالحت، وتقاسمت الوطن. صاروا رجال «دولة» وهنّي اللّي دمَّروها أصلًا. قعدوا على كراسي حكم كان لازم تكون منصّات محاسبة. حاملين أعباء الماضي بيوميّاتنا، بالوظيفة اللّي مش كافيتْنا، بطوابير البنزين، بإنهيار اللّيرة، بنظام طائفي ما تحاكم لأنّو كُرِّس ليبقى. هويّتنا مشوّشة، مش عارفين فيها إذا كنا مواطنين أو أتباع. منُنظر للبنان كحِلم، بسّ حِلم مأجّل، كاحتمال لدليل براءة رغم كل الدلائل اللّي بتثبت الجُرم، منشكّك، منعصّب، منساير، منرجع منِسكت، لأن تعوّدنا نِسكت.

انتَهت الحرب، بسّ إنتو ما رَحلتوا. كنتُ أظنُّ أنَّ النّهاية التّي لم تُكتب بعد، ستكون بْرَحيلكُم، لكنّكم نجَوتُمتم. فرحَلنا نحن، وبقيتُم أنتم.

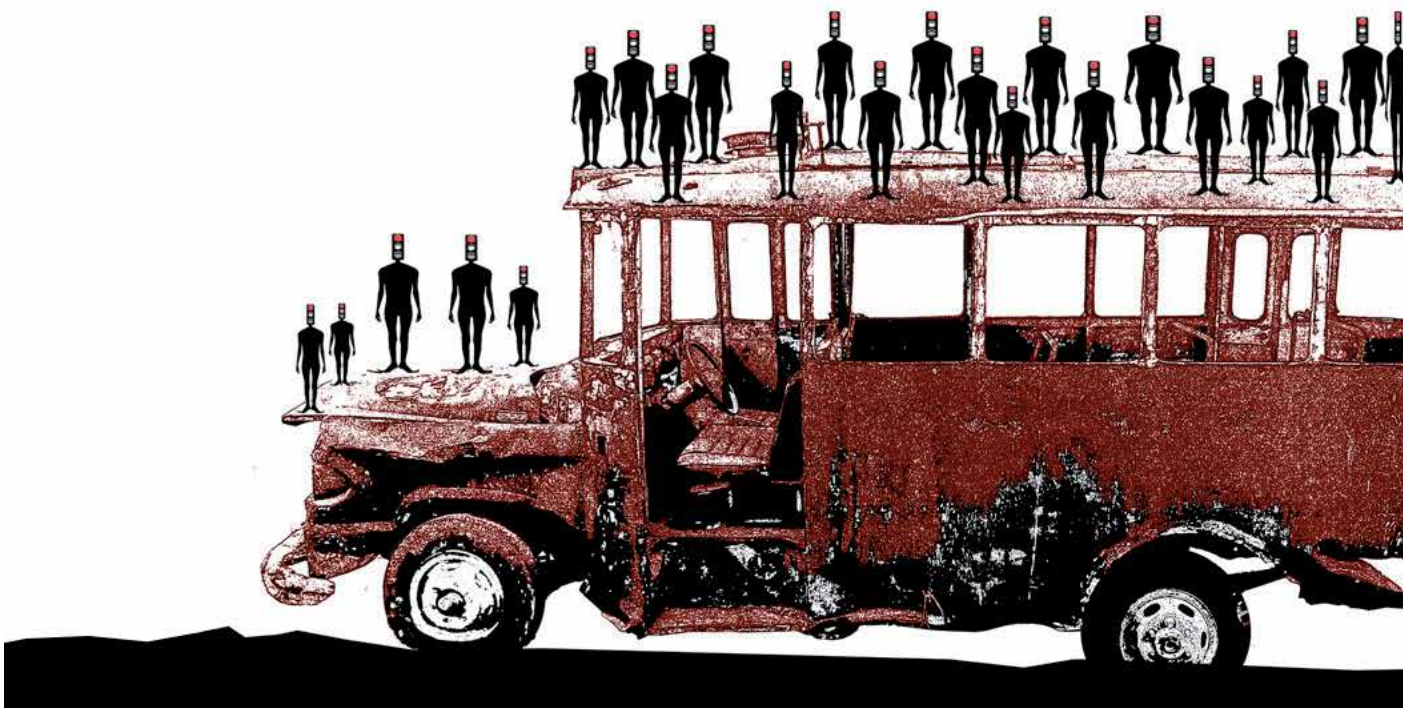

الأغاني الحزبية، عُنف مُتوارث وإن اختلفت المناسبات

حسن سنديان

لا يقتصر هدف الفن على أن يكون ذو رسالة ساميَة أو يَرقى بالشعوب إلى ما هو أسمى، بل للفن أوجُه أخرى رسّخت العنف عبر عدّة أجيال؛ ومثال ذلك لبنان، حيث حضَر بدلالات وأشكال شتّى، منها الأغاني الحزبية التي ظهرت بداية الحرب الأهلية مطلع العام ١٩٧٥، وظلّت تردَّد حتى يومنا على ألسنة أجيال أخرى، في كل استحقاق أو مكسَب سياسي، أو لتحشيد الشارع اللبناني، أيْ لم يختلف سوى الزمان والحدَث وبقي المكان كما هو.

لمحة عن الموسيقى في لبنان

في هذا المقال لا بدَّ من العودة إلى تاريخ الموسيقى في لبنان، كي نفهم السياق الذي أنتجه العنف في الأغاني الحربية، بدءًا من محطاتها الأولى، وهي الدراسة التي أعدَّها اللبناني المتحدِّر من أصول يونانية ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ - ١٨٨٨) وكانت بعنوان «الرسالة الشهابية في الصناعة الموسيقية». وهي تعدُّ اليوم مرجعًا مهمًّا لكل المهتمّين بقضايا الموسيقى العربية، حتى تأسيس «معهد التراث الموسيقي اللبناني» في مدرسة الجمهور في بيروت عام ٢٠١٢، وصولًا إلى المؤلف الموسيقي وديع صبرا (١٨٧٦ - ١٩٥٢) الذي أسَّس في العشرينات من القرن الماضي المدرسة الموسيقية الأولى في لبنان والتي تُعرف اليوم بـ«المعهد الوطني العالي للموسيقى – الكونسرفتوار»، بحسب كتاب، «الحياة الموسيقية في لبنان منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم»، للباحثة في الفن والموسيقى زينة صالح كيالي.

ويُعرِّج الكتاب على الدَّور الذي لعبه الموسيقيين الروس الذين هربوا من الثورة البولشفية عام ١٩١٧ واستقرّوا في بيروت، ومنهم إيلين لازاريف وميشيل شينيكوف وإيلينا سافرانيسكي. وقد ساهموا في ازدهار الكونسرفتوار وتعليم أجيال من الطلاب. مرورًا بمعاهد الموسيقى والمهرجانات، منها مهرجانات بعلبك الدولية التي تعدّ الأولى من نوعها في الشرق الأوسط في مطلع خمسينات القرن الماضي عام ١٩٥٦، حيث كانت بعدها بعام بداية انطلاقة الأخوَين رحباني وفيروز عام ١٩٥٧، إضافة إلى «مهرجانات بيت الدين» التي تقدِّم كل أنواع الموسيقى، و«مهرجان البستان» المُختصّ فقط في الموسيقى الكلاسيكية والذي ينظَّم في فصل الشتاء، بعكس المهرجانات الأخرى، وقد استقطبت هذه المهرجانات، حتى اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، أبرز الفنانين العالميين.

كل ما سبق من ازدهار الموسيقى في لبنان تبرِّره الكتابة بالمناخ الذي كان يتمتّع فيه هذا البلد، من انفتاح وتعدُّد للثقافات والذي سمح للعديد من اللبنانيين وغير اللبنانيين بالعطاء الموسيقي، وجعل لبنان مركزًا مهمًّا للإبداع والمهرجانات الدولية التي يُشارك فيها فنانون عالميون من جنسيات مختلفة.

التحوُّل من الفن إلى أغاني الحرب الأهلية

غيَّرت الحرب الأهلية وُجهة لبنان الموسيقية، مع بداية الطلقة الأولى التي أشعلت الاقتتال

الداخلي فيه عام ١٩٧٥، بين الأحزاب المختلفة، لتتحوّل إلى بروباغندا لكل حزب، تشحن الإيديولوجية الدِّينية والحزبية لدى الأجيال الحالية، نراها تتجلّى في مناسبات عدة.

ها هو بدري بودياب الذي كان مقاتلًا في الحزب الاشتراكي، خلال فترة الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، يعود بذاكرته مسترجعًا الأغاني التي كان تردَّد على ألسنة الجمهور، ويقول لـ«أمم»: «في وقتي كانت مشهورة أغاني مارسيل خليفة، وهناك أغاني حزبية أخرى، ومنها أغاني الحزب الاشتراكي التي ألَّفها سعد حلاوي للحزب ومنها «الاشتراكية أبطال الحرب الثورية».

ويرى أن هذه الأغاني استمرّت إلى الجيل الحالي، ولكن بشعارات جديدة. في حين أن الذاكرة الجمعية لها تأثير على الشباب، بسبب عدم وجود التفكير النقدي، بالرغم من مستوى العلم والمعرفة الذي تقدَّم واختلف عن زمن الحرب الأهلية، لكن الموروثات أقوى من المعرفة، والناس تتوارَث الأفكار وليس فقط ملكية الأراضي.

ويضيف بو دياب: «الأغاني التي كنا نستمع إليها كانت تولِّد فينا حافزًا للقتال بسبب الشعارات التي كنا نؤمن بها، أمّا اليوم فالفرق هو أن بعض هذه الأجيال لا تستمع إلى هذه الأغاني ولكن تنظم شعاراتها بحسب المرحلة وتُؤلِّف أغانيها وشعاراتها من روحية الحالة الموجودة، والبعض الآخر من هذه الأجيال ما زالت تحمل موروثات أهلها في بعض المناسبات الحزبية وتسترجع هذه الأغاني والشعارات التي ردّدها أهاليهم».

يطابق كلام بو دياب المرحلة الحالية، خصوصًا في

من صور استذكار الحرب في لبنان، المصدر مجلة المجلة

أجواء الانتخابات البلدية، حيث عاد مشهد الأغاني، عندما فاز حزب القوات بانتخابات زحلة، حيث احتفل سمير جعجع مع مناصيره، بأغنية «عا زحلة ما بِفوتو» التي كانت تواكب مرحلة حرب زحلة والتي خاضتها القوات ضد الجيش السوري أيام حكم حافظ الأسد، ما يُعيد مشهد استمرار العنف ولكن بحالة مختلفة.

شعارات المرحلة

كانت أغاني الحرب الأهلية اللبنانية عبارة عن شعارات لكل مرحلة أو معركة تردَّد، ثم سُرعان ما تُلحَّن وتُصبح أنشودة، دافعها إيديولوجي وهدفها الحشد والتعبئة. ومنها «لاح العلم الأحمر لاح بين القنطاري والشياح»، وهذا مقطع من أحد شعارات «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، يقول نسيم أسعد الذي كان مقاتلًا في الحزب الشيوعي.

ويُضيف، كان لكل حزب أغانيه؛ فالفلسطينيين تتعلَّق أغانيهم بالثورة في فلسطين، أما الحزب القومي السوري فأغانيه مرتبطة بسوريا الكبرى، وكانت الألحان

وكلمات الأغاني توضع من أجل التعبئة الإيديولوجية؛ في حين كان لدى الشيوعيين مارسيل خليفة وخالد الهبر وزياد حوّاط، وكانت أغانيهم وألحانهم مصدرًا للتعبئة والتحشيد، وكانت تلك الأغاني عبارة عن انعكاس لحدث معيَّن ثم تتحوّل إلى أغنية لرفع المعنويات والتحشيد وتحفيز الدافع على القتل».

واعتبر خلال حديثه لـ«أمم» أنه لا يوجد رؤية موحَّدة للعنف بالأغاني، بل هناك أناس يرون الذين قُتلوا في الحرب الأهلية شجعانًا ضحّوا وأبطالًا يُنظر إليهم نظرة مقدّسة. وهناك نوع آخر، هو هامشي على موضوع الحرب الأهلية، أما النوع الثالث فلديه نظرة نقدية للماضي بعيدًا من العنف ولا يوجد رؤية تتفوّق على رؤية أخرى، مشيرًا إلى أن الأغاني لا زالت حاضرة بالخطاب والحوارات الاجتماعية في المناطق والأحياء».

مخاطبة الفرد

لا تقتصر الأغاني الحزبية على شعارات مرحلة معيّنة فقط، بل هناك أحزاب، انتقلت إلى مخاطبة الشخص في حدِّ ذاته، أي «الشهيد» عبر كلمات تؤلَّف خصّيصًا لهذا المقاتل وتحوِّله «من شخص عادي إلى شهيد القضية»، ولكن حسب كل مرحلة؛ منها لطمية عامل يا عامل أين جواد لصادق زعيتر التي «تحكي قصة الشهيد سمير مطوط (جواد)، الذي قُتل في العام ١٩٨٦، حيث تحمل هذه اللطمية معانٍ رمزية بدءًا بجبل عامل مرورًا بكربلاء وصولًا إلى الصراع مع إسرائيل».

وهنا كانت بداية تغييب الكثير من الآلات الموسيقية على اختلاف أشكالها وحضور طاغٍ للرموز والتعبئة الإيديولوجية لكل مرحلة من المراحل، حيث ظهَرت الأناشيد لأوّل مرّة في العام ١٩٨٤ مع فرقة «الولاية» كـ «يا جيوش الحق»، و«امِضِ ودمّر»، و«لا لن نركع». وفاضت بمصطلحات الثورة الإيرانية، ثم تحوّلت بحسب كل مرحلة، منها عند دخول حزب الله ليُقاتل في سوريا والحرب ضد «الإرهابيين»، وصولًا إلى المواجهة مع إسرائيل.

هذا النمط من العنف في الأغاني استمرّ إلى يومنا هذا، ولكن مع اختلاف الحدث، إذ عادت هذه الأغاني للظهور مع فوز ثنائي حزب الله وحركة أمل في الانتخابات البلدية الأخيرة، حيث وُجهت هذه الشعارات والأغاني بشكل احتفالي إلى أمين عام حزب الله الأسبق الذي قضى في الحرب الأخيرة في لبنان لتُهديه نصرًا تمّ، بالإضافة إلى الأغاني التي شاركت فيها حركة أمل والتي توجَّه بها جمهورها إلى رئيس مجلس النواب نبيه بري لتعكس فكرة النصر على الحرمان الذي امتدَّ من السبعينات إلى يومنا هذا.

الوطن بهدف التجييش

لم تسلَّم الأغاني الوطنية التي عُرِف بها لبنان كوطن كلِّي لأبنائه، من هذا العنف عبر ثلاثة أجيال مع انتهاء الحرب الأهلية، حيث كانت تُستخدم من قِبل حزبي القوات اللبنانية والكتائب اللبنانية، كحفلة تجييش لتحريك المشاعر، كما يصفها رئيس «جمعية محاربون من أجل السلام» أسعد شفتري والتي ضمّت العديد من مقاتلي الحرب الأهلية.

ويُضيف شفتري: «أن الأغاني الوطنية لم تكن بالضرورة أغاني حزبية، بل إن الأغاني الوطنية استُغلَّت من الجهتين للتجييش؛ مثال، ماجدة الرومي «عم بحلمك يا حِلم يا لبنان»، «كانت بالنسبة لي تُحفِّزني وتدفعني لأن أقوم بفعل عنيف وأشارك بالدفاع عن الوطن، يلّي بالآخر أوصلنا للعنف».

وفـي العـام ١٩٧٤ «نُظِّمـت تظاهـرة تأييـدًا للجيـش نظّمتهـا الأحـزاب اليمينيـة، وكان أحـد الشـعارات التـي ردِّدت حينهـا، «يـا سـكندر لا تعبِـس بـدك عسـكر لنلبِـس» كنـوع مـن التجنيـد وإظهـار القـوة».

وعـن انتقـال العنـف عبـر الأجيـال يـرى الشـفتري أن العنـف اسـتمرَّ مـن خـلال توريث الأجيـال لهـذه الأغاني، «أي كل جيـل يـورِّث مـا بعـده». مـع أن فكـرة الأغانـي اختلفـت مـن الحـرب الأهليـة إلـى اليـوم، لكنهـا بقيـت وراثـة للعصبيـة، مـع أنهـا لـم تعُـد تُـردّد حاليًـا، وأرجِّـح أن تعـود وتُسـتخدم مـرة أخـرى فـي حـال حصـل أمـر مـا، ولكـن ليـس عبـر الأحـزاب بـل بسـبب إنهـا انتقلـت مـن جيـل إلـى جيـل، أي عبر النـاس التـي تبنّوهـا وكانت تشـكّل لهـم حافـزًا علـى النضـال وورثّوهـا مـن بعدهـم لأودلاهـم عبـر ثلاثـة أجيـال».

ويختـم الشـفتري حديثـه قائـلًا: هـذه الأغانـي تظهـر عبـر شـدِّ العصـب فـي الاحتفـالات الحزبيـة «وتُجـرب علـى الصغـار ليسـترجعوا بهـا ذاكـرة الكبـار، كمـا أنـه يمكـن أن تعـود عبـر الانتخابـات ومآتـم شـخصيات، أي لا تـزال بالعقـل الجَمعـي، وهـي تختلـف مـن منطقـة لأخـرى حسـب أهـواء النـاس».

السـخرية: مـن فليمـون وهبـي وزيـاد الرحبانـي إلـى بديـع أبـو شـقرا

فـي خضـمّ تلـك الشـعارات التـي كانـت تُـردَّد بعفويـة، وتتحـوَّل إلـى أغـانٍ ملحّنـة مـن قِبـل كل كل حـزب ينافـس الحـزب الآخـر، بهـدف إثـارة العنـف والتجييـش، ظهَـر فيلمـون وهبـي عـام ١٩٨٥ الـذي عاصـر الحـرب الأهليـة وألَّـف أغانـي سـاخرة عـن الحـرب، انتقـد فيها كل الأحـزاب وقادتهـا كـردٍّ علـى تلـك الشـعارات ومنهـا أغنيته الشـهيرة سـركيس سركيسـيان، ثـم تأثَّـر بـه زيـاد الرحباني أيضًـا، مـع ظهـور الرحابنـة، الياس وغسـان وأسـامة، فـي تلـك المرحلـة واتخـاذ طابـع محايِـد فـي الفـن.

مـن بعدهـا اتخـذ الفنـان والممثـل بديـع أبـو شـقرا طابعًـا جديـدًا لتلـك الأغانـي التـي كانـت تتغنَّـى بهـا الأحـزاب فاسـتبدل طابـع العنـف بالحنيـن، مـن خـلال عـرضٍ مسـرحي غنائـيّ فـي بيـروت، عـام ٢٠١٠ بعنـوان «كاس ومتـراس» بالحـرب التـي صُبغـت بصبغـة طائفيـة فـي لبنـان، حيـث دمَـج مـع الحنيـن ذكريـاتٍ أليمـة، مـع حرصـه علـى عـرض أغنيـة «يـا زمـان الطائفيـة» مـن مسـرحية «فيلـم أميركـي طويـل» للفنـان زيـاد الرحبانـي ١٩٨٠، وطرحِهـا بعيـدًا عـن العنـف والطائفيـة.

لغة العنف وعنف اللغة الذي نطبّع معه دون علمنا: حرب أهلية مستمرة

حوراء دهيني

«شو أنا بدّي حرب أهلية؟ بس إذا صارت في عندي ليستة بـ٢٠٠ واحد بدّي شقّفن»

هذا ما قاله الصحافي جوزيف أبو فاضل خلال مقابلة تلفزيونية أُجريت معه قبل فترة، وما لبثَت عبارته أن تحوّلت إلى مادّة للضحك والاستهزاء، بين روّاد مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن يشكّل المحتوى العنيف مصدَرًا لانزعاج جَدّي لعموم الجمهور باعتباره استدعاءً لاقتتال أهلي جديد.

ليست المرة الأولى التي يحضُر فيها العنف أو يُشار فيها إلى الحرب الأهلية في معرض المزاح على الشاشات اللبنانية وفي الفضاءات العامّة في لبنان.

وُلدتُ في جنوب لبنان وكانت الحرب الأهلية قد وَضعت أوزارها قبل ثلاث سنوات فقط. ورغم أن تلك الحرب لم تكن حاضرة في ذاكرة أهلي بشكل مباشر، إلّا أنني نشأت في ظلّ حروب أخرى، أكثر التصاقًا بحياتي اليومية.

في الجنوب، لم تكُن الحرب الأهلية هي الشبَح الحقيقي، بل إسرائيل. كانت الهاجس الذي شكّل وعي الجنوبيين وحرّك مخاوف أطفالهم. في قبو ذاكِرتي صورٌ تعود إلى «عناقيد الغضب» عام ١٩٩٦، مجزرة قانا، وأطفال المنصوري.

لكن، على هامش هذه الصوَر، تسكن حروب صغيرة أخرى، كحرب «الأخوة» وحرب «المخيّمات»، وحروب ننتظرها وتتربّص بنا عند كل منعطف، ولا ندري ماهيّة أسبابها فتظلُّ أكثر التباسًا، وبين جولَتي حرب تبقى ظلال الاقتتال وبقاياه في الحكايات وفي الهمَسات، في النِكات والشتائم وفي الخوف والصمت.

أفكر أحيانًا: هل تندلع الحرب دون أن نراها؟ ما الذي يجعلها جزءًا من لغتنا وخيالنا؟ وهل حقًا تنتهي الحرب عندما يُعلَن وقف إطلاق النار؟ أم أنها تتربّص بنا بانتظار الانقضاض مرة أخرى؟

اللغة كمَوروث ثقافي

لا يرِث البشر فقط البيوت والديون والأسماء، يرثون أيضًا اللغة والذاكرة وطرائق التعبير. عبارات وقصص تَطبع وَعينا منذ الطفولة، حتى تصبح مألوفة إلى حدّ أننا لا ننتبه لمعناها الحقيقي.

أمي التي لم تمارس العنف الجسدي ضدنا قطّ، كان تقول حين يُغضبها أحدُنا: «لازِمك تعليق عالبَلانكو!»، عندما ترى أنّ ما حدَث لا يجب أن يمر دون عقاب حقيقي.

أما جارتُنا، التي اختُطف شقيقها في بداية الحرب الأهلية، فكانت تدمع وتقول عند كل منعطف يمرّ فيه شبح الاقتتال: «صدق زين شعيب لمّا قال: دايمًا عزرائيل ناصب إلنا كمين».

صُرت أستخدم مصطلح «بَلانكو» مع أخوتي وفي

المدرسة دون أعرف معناها، أدركت لاحقًا أنها ليست إلا سلسلة حديدية يستخدمها القصّابون لتعليق اللحومات، وقد استُخدمت بالحرب الأهلية للتعذيب، هل تريدون عبارة أكثر رُعبًا؟ زميلتي في المدرسة كانت تقول: «زعلك شو قريب، شو قطّعتك وصبّيت عليك باطون»؛ صورة أخرى قادمة من الحرب الأهلية، مشاهد لطالما كان تخيُّلها يبعث على الانزعاج والرعب.

عنف اللغة: السياق والدلالة

تؤكّد الأبحاث اللّسانيّة النفسيّة أنّ العنف ليس فعلًا ماديًا يمارسه فرد ضد فرد آخر فحسب، بل هو أيضًا حدَث لغوي أو فعل كلامي يعبِّر عن موقف سيكولوجي انفعالي، والتلفّظ بالعنف يكون عبر استخدام الكلمات التي تنتمي إلى قاموس مفردات السبّ والشتم والتهديد والتعنيف والتجريح. وألفاظ وتعبيرات العنف تمثّل أفعالًا لغوية إنجازية وتأثيرية، وتؤدّي وظائفَ تداوُلية معينة، وتُسهم في بناء الخطابات العنيفة وتخصيصها بنيويًا ونمطيًا، وتجعل لها اعتبارًا مهمًا لدى المجموعة، فالعنف إذًا هو سلوك وانفعال، وفي حالة الغضب العدواني يرغب المرء في إفراغ ما في جُعبته من مرارة وحَنق وغيْظ، فيحاول التخفيف من وطأة هذا الضغط النفسي والتقليص من حجمه باستخدام الألفاظ العنيفة، وبذلك يتّخذ العنف اللفظي مَنحيين، فمن جهة قد يكون الطريقة الأقلّ حدّة في تفريغ الغضب، ومن جهة أخرى قد يُشير وخاصة عند الإكثار من تداول الألفاظ الدالّة على العنف إلى الغضب المختزن في النفوس الذي يمكن أن يخرج عن السيطرة ويأخذ دلالات لها أبعاد غير البُعد الكلامي، بالإضافة إلى أنّ الدماغ يطبّع مع

لوحة زيتية لـ: Kazimir Malevich

الصوَر المتداوَلة بكثرة مع الوقت ويجعل تخيّل حدوثها وتطبيقها أكثر سهولة.

كيف يرى الأدب العنف ويحاول تفكيكه

تقول غادة السمّان في روايتها «كوابيس بيروت» الصادرة عام ١٩٧٦، «الحياد في عالم العنف جريمة أيضًا، إنه مساعَدة لأحد الطرفين على تصفية الآخر، ثم إن الانضمام إلى أحد الطرفين يجعل الموت أقلّ مرارة، الموت الجماعي أسهل من المواجهة الفردية للموت». وتسأل «إلى أي حدٍّ يُعتبر رفض العنف جريمة؟ وهل هذه جريمة تستحق الموت بعنف؟».

في محاولة لتحليل لغة العنف المتداوَلة والناجمة عن تأثير مباشر للحرب الأهلية وأخَواتها، حاولتُ استعادة تجربة قراءتي لبعض الأعمال الأدبية الصادرة في الحرب وبعدها، والتي شكّلت الحرب وتبِعاتها

خلفيتها و«الثيمة» الأساسية في بُنيتها السَّردية، في سعي لتفكيك لغة العنف فيها وعنف اللغة.

بعد قراءتي «كوابيس بيروت» مثلًا، رافقَني المشهد الذي تصف فيه غادة السمّان كابوسًا تُهاجم فيه الجرذان أطفالًا بعد احتجازهم في الملجأ وقضمِها لحمهم الحي، وصار استحضاره لصيقًا بالجرذان.

أمّا تجربة قراءة رواية الحرب الأهلية «الخائبون» الصادرة عام ١٩٩٥ لمنى شاتيلا، فقد كانت أكثر إمتاعًا، حاولت فيها الكاتبة تفكيك رواية الحرب بطريقة عميقة وشاملة، وبحثت فيها عن أسباب اندلاعها، ويظهر أنّها وجدت في تناقض السَّردية التي بُني عليها المجتمع اللبناني أهمّ أسباب ذلك، الرواية متماسكة ومبنيّة بإتقان رغم إشباعها بالاستطرادات، حاولَت من خلال الشخصيات تفكيك الفكر الديني والسياسي، وانتقدت فيها الأطراف والتناقضات بطريقة عنيفة وشرسة أحيانًا، وجسّدت الميول العُنفية على لسان الشخصيات في كثير من الحوارات، إحدى الشخصيات تقول، مثلًا: « كأنّ ما يحدث في لبنان من حروب لا يعدو كونه مزحة إلهية، فالحرب ليست كما يجب، إنها هزلية على نحو ما»؛ فتسألها جارتها: «كل هذه الجثث والحرب هزليّة؟»، لتُجيب: «بالطبع، عون ضعيف لا يذهب في الحرب إلى مداها، موزِّعًا نصف حنَقه على القوات، القوات تخبِّئ نصف عنفها إلى لحظة انقضاضها عليه»؛ «ادرُسي وجوه عناصر حرس الأرز، الرغبة بمصِّ الدم والقتل موجودة على وجوههم لكن لقياداتهم حسابات خاصة يلجمونهم بها...»!

المقطع التالي أكثر غرابة، فقد صدَر عن الشخصية نفسها: «ماذا لدينا؟ بضعة آلاف من القتْلى؟ مئات من المعاقين؟ قليل من المجازر والمذابح مما لا يُشبع القلب ولا يروي الروح، كأنّما الربّ عندنا يبتدئ عنفه بولَع شديد ثم يتراجع في منتصف الطريق...»!

رواية حكايات الحرب

شكَّلت الحرب الأهليّة مدخلًا دسِمًا وأرضًا خصبة للقصَص التي يجب أن تُروى كي لا تضيع في غياهب النسيان، فالروائيّون اللبنانيون ظلّوا أسرى هذا الحدث الجلَل ولم يستطيعوا التجاوُز عنه خلال أعمالهم، وذلك طبيعي باعتباره حدَثًا تأسيسيًّا في المجتمع اللبناني، والقفز عنه عند كتابة أدب الخيال الواقعي يُعدُّ انفصالًا عن الواقع، وبذلك ظهرت الكثير من الروايات الأليمة والعنيفة كسياق، بحُكم قصتها.

رواية «حكاية زهرة» الصادرة عام ١٩٨٠ أي خلال الحرب الأهلية لحنان الشيخ هي إحدى تلك الروايات الأليمة بمسار أحداثها، فهي قصّة فتاة تعرّضت لكافّة أنواع العنف وطبّعت عليه بعد أن فشلت في محاولة الهروب منه، إلى أن قضى عليها، تعرّضت زهرة للتنمّر والتحرّش والاغتصاب وصمدت حتّى انتهت حياتها قتلًا في آخر المطاف، تساءَلَت كثيرًا عن السبب الذي دفع زهرة للتطبُّع مع كل ذلك العنف، وعن العدالة التي ظلّت محظورة عليها فلم تنَل رغم ذلك إلّا القهر والموت.

أمّا رواية «يالو» الصادرة عام ٢٠١٢ للكاتب الياس خوري، فقد كانت من الروايات الشّاقة على الاحتمال، حتّى أنّ المشاهد المزعجة والعنيفة والمقزّزة فيها جعلَت متابعتها أحيانًا يتطلّب جهدًا شاقًّا.

أحداث الرواية تدور في الفترة التي تلَت الحرب الأهلية بوقتٍ وجيز، وهي تحكي عن شاب شارك في الحرب كمقاتل، وقام بالاغتصاب والسرقة، وبعد دخوله السجن تعرّض لكافّة أنواع التعذيب من المحقِّقين ليقتلعوا منه الاعترافات. العنف والجنس «ثيمتان» رئيسيّتان في الرواية، يُدخلنا إلياس خوري إلى عالم التعذيب في السجون اللبنانية؛ التعاطف مع «يالو» بسبب ما يتعرّض له بدا بديهيًّا.

رغم قساوة مشهد وصف التعذيب من خلال الجلوس على القنينة والتغوُّط على الذات بسبب التعذيب، إلّا أنّ مشهد نهش الجسد من قبل قطٍّ مسعور كان الأكثر رُعبًا وإثارة للذهول، ما اضطُرني إلى وضع الرواية جانبًا. يصل «يالو» إلى مرحلة يعترف فيها بأشياء لم يقُم بها بسبب سوء المعاملة. تُضيء «يالو» على الحرب كأداة تهشيم بآثار لا تنتهي، تجعل من المشارك فيها كائن غريزي لا يُجيد العيش دون رائحة الحرب والقتل والتحلُّل الإنساني. اتّهام «شيرين» لـ«يالو» باغتصابها كان مثيرًا للاستغراب، ففي حين كان يبدو متفاجئًا فعلًا من هذا الاتهام لأنّه كان يجد في سلوكه ممارسةً للحب، كانت تُسايره وتتقزَّز منه، كيف أمكن أن تتناقض رؤية شخصين لحدثٍ واحد إلى هذا الحدّ؟ وكيف تحوَّل الحرب الإنسان إلى كائن غريب لا يستطيع تقدير حجم ما يسبِّبه من أذى؟

أمّا رواية «دنيا» لعلويّة صبح، الصادرة عام ٢٠٠٦، فهي رواية نسائية بامتياز، وقد أضاءت على آثار العنف من زاوية الطرف الثالث. «أبو توفيق» إحدى الشخصيات المُسالمة في الرواية، بداية الحرب قرّر البقاء في بيروت الشرقية لأنه لا يُحب معاشَرةَ الإسلام باعتبارهم «هردبشت»، ولم يُغادرها إلّا على مضَض بعد أن طلب منه أحد المسلحين أن يُخرج بطاقة هويته، وبعد إخراجها شدّه بشعره وانهال عليه ضربًا وأمره بشتم من أراد شتمهم، ثمّ قال له: «يلا روح زمَطت ما جاي على بالي اقتلك، ما بتحرز رَوّح عليك رصاصة»؛ اضطر بعدها إلى ترك الشرقية والسكن في «الحمرا». وبعد تلك الحادثة ومقتل صديقه «إيلي» فقَد عقله وخرِف فصار لزامًا على زوجته العناية به ووضْد الباب عليه والاعتناء به حتّى آخر أيّام حياته. مُدهشة قِدرة السياسة والحرب على تغيير مصائر النساء حتّى رغم عدم انخراطهنّ بها غالبًا.

في سياق رديف كانت تجربة قراءة رواية «الاعترافات» الصادرة عام ٢٠٠٩ لربيع جابر، و«شريد المنازل» الصادرة عام ٢٠١٠ لجبّور الدويهي أكثر لطفًا وهدوءًا، فقد استطاع الكاتبان فيهما استحضار الحرب الأهليّة ببشاعتها ومآسيها وآثارها، بلغةٍ أكثر عطفًا، وتماهيتُ مع الأحداث وأثارت تعاطفي، بعيدًا من العنف، بلغتها ومقاربتها للأحداث، وأوصلت لي صوتًا مرتجعًا ينبذ الحرب والاقتتال دون الغرق في الصخب والعنف، لذلك أعتقد أنّ الكاتبين نجحا في هذين العملين في التأطر ضمن دائرة «القصّ الراقي».

لا ندري إلى أيّ حدٍّ يجب أن يتحمّل الأدباء - كعيون على الأحداث ومشاركين في صناعتها - المسؤولية في محاولة رسم واقع جديد أقلّ سوداوية وعنفًا عند نقل أي صورة أو حدَث، ولا نعرف القدَر الذي يُساهم فيه «القصّ الجريء» الحريص على نقْل وقائع الأحداث بما تختزنه من مأساوية، واللغة بما تحتويه من ظلام أو كراهية، في رسم العنف وتشكيله بأساليبَ جديدة، وسيبقى الحدّ الفاصل بين مساءلة العنف والتطبُّع عليه أو إعادة تشكيله عصِيًّا على القياس، لكنّ المؤكّد أنّ مطالبة القائمين على الفن والأدب بالبحث عن لغة أكثر اتّزانًا ليس إلّا نوعًا من الوصاية وأنّ لغة أي مجتمع ليست إلّا إعادة مراجعة لتجاربه المُعاشة وتمظهُر مُعاد لإنتاج واقعه.

الأوزاعي أرض غُربة وتهجير

ريان ناصر

«إن الهوية إبداع صاحبها، لا وراثة ماضي»

الشاعر الفلسطيني محمود درويش

كيف يمكن للهوية أن تكون منفتحة على التعدُّد؟ لطالما راودني هذا السؤال، بعدما انتقلت من منطقة الأوزاعي حيث لتلك المنطقة محطة أساسية في حياتي من الولادة والنشأة... ولطالما تردَّد على مسمعي حكايات كثيرة عن التبدُّلات السكنية التي شهدتها هذه المنطقة بفعل الحروب.

أن تحمل على كتفَيك كاهل الطفولة والشباب وتمضي بعيدًا يعني أن تُعيد النظر في مكان نشأتك بصورة مغايرة قد تكون إلى حد كبير أوسع وأشمل مما كنت عليه داخل «المربَّع الآمن». ويعني أيضًا أن تشكِّك بهذا «المربَّع الآمن» نفسه. كيف لمجموعات من خلفيّات متعدِّدة، تهجَّرت من أماكن مختلفة، قد وصلت إلى نقطة تجمّع واحدة؟ وكيف تشكّل ما نُطلق عليه «الفرز الديموغرافي».

أن تفقد مجموعة ما مفهوم الهوية في مكان مُغلق هو المحفِّز الأساسي لبناء كتلة جماعية موحَّدة تتشارك نفس الأوجاع والأحلام، وربما أحيانًا المصير والقدَر، خصوصًا إذا كان الماضي نفسه نقطة مشتركة أيضًا، وهو خلفية الحرب ونتائجها.

هذا ما يُميِّز مجتمع منطقة الأوزاعي الذي تشكَّل مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية، حيث لا هوية فردية لسكان تلك المنطقة وجميعهم توحِّدهم هوية جماعية تندرج تحت مسمّى «هوية المكان الواحد» الذي جمع أُناس بعضهم تهجّر بفعل الحرب وجاء من ضواحي بيروت الشرقية، وبعضهم الآخر نزح من قرى جنوبية وبقاعية وسكَنوا تلك البقعة الصغيرة الساحلية، وهي ما أُطلق عليها اليوم تسمية «أرض الغرباء».

حاجة سكان الأوزاعي لإيجاد مساحة آمنة دفعهم للاتحاد والتلاحم وبناء مربَّع مستقل ومتفرِّد بذاته، له لغته وكلمات مفتاح خاصة بأهاليه. أسلوب كلامي خاص في كل مجموعة، التقت في مكان واحد، تلاقت الكلمات إلى أن تكوَّنت لغة الأوزاعي الخاصة والتي وصلتنا نحن جيل اليوم بالتواتر من جيل إلى جيل.

داخل المكان

لم أعرف في طفولتي مسمَّيات رسمية مكتوبة على جدران، ذاكرتي محصورة في تقاطع زاروبين يجمعهما «دكانة أم محسن»، ومدرستي التي كانت تُدعى «رويال سكول» وتقع في «الحيّ الجوّاني». مساحة اللعب والأحلام كانت تنتهي دائمًا عند «راس الطلعة» حيث الشارع العام الذي علِمت في ما بعد أنه مدخل العاصمة بيروت. أحياء تسكُن أحياء، بعضها يُنسب إلى أسماء قراهم كـ «حي أهل بليدا»، وبعضها يُنسب إلى أسماء العائلات مثل «حي آل عساف». وبعض مسمّياتها تتّصل مباشرة بالحرب الأهلية و«شهدائها»، «شهداء» الجهات

الداخليـة والحـروب الأهليـة المُتكـرِّرة أو الحـروب الإسـرائيلية التـي لا زلنـا نعيشـها حتـى اللحظـة.

جغرافيًّـا، وعلـى الرغـم مـن أننـا نتنفَّـس رائحـة ميـاه البحـر ويلفحنـا رذاذ أمواجـه وتبتـلّ شـفاهنا بالميـاه المالحـة عندمـا نغسـل وجوهنـا صباحًـا، إلّا أن ليـس لـكل البيـوت الحـظّ فـي أن تـرى أو تجـاوِر البحـر، فالنـاس «المهجريـن» كُثـر وبيوتهـم متلاصقـة، بعـض الشـبابيك مفتوحـة علـى البحـر الكبيـر والغالبيـة منهـا تطـلُّ بعضهـا علـى بعـض.

هـي الحـرب الأهليـة التـي لـم أكـن قـد وُلـدت بعـد عندمـا اندلعـت وعندمـا انتهـت. هـي مـن نتائجهـا التـي أفـرزت تلك العشـوائيات فـي الأبنية والجدران الإسـمنتية التـي تحجـب عنّـا زِرقـة البحـر كمـا تحجـب عنّـا الحيـاة الأخـرى التـي تعيشـها المدينـة، رغـم أن بعض مسـمّيات النواحـي كانـت ثقيلـة علـى مسـامعنا نحـن الأطفـال مثـل «حـي السـان سـيمون» و«الأكابولكـو»، والتـي لـم يبـقَ منهـا اليـوم سـوى الاسـم وبعـض الأطـلال، منهـا ومـن جـدران الشـاليهات ومنتجعـات السـباحة التـي كانـت تسـتقبل أغنيـاء المدينـة وسياسـييها والسـوَّاح، فـي الخمسـينات والسـتينات قبـل الحـرب.

أثنـاء الحـرب تغيَّـرت وُجهـة المنطقـة السـياحية الفاخـرة وانتهـت ببنـاء مكعّبـات إسـمنتية واكتظـاظ سـكاني عشـوائي وصـولًا إلـى مـا وصلـت إليـه اليـوم مـن تجمُّعـات وأحيـاء مُقفلـة علـى سـاكنيها، بعضهـا عائلـي وبعضهـا الآخـر خـارج عـن القانـون، تطلـع علينـا كل يـوم بأحـداثٍ وحكايـات عنيفـة تسـتمدُّ عنفهـا مـن عنـف حروبنـا الصغيـرة.

قرية حنتوس

بالعـودة إلـى القديـم، لطالمـا تسـاءلت عـن أصـل هـذه البقعـة التـي كانـت مرتفعًـا رمليًّـا يمتـد إلـى منطقـة

الرملـة البيضـاء، وكانـت قبـلًا قريـة صغيـرة تُدعـى «حنتـوس» قبـل نحـو 1240 سـنة، تقـع فـي المنطقـة الجنوبيـة مـن مدينـة بيـروت بمـوازاة البحـر. اندثـرت قريـة «حنتـوس» مـع مـرور الزمـن وتبـدُّل العصـور، باسـتثناء مسـجدها القديـم الـذي كان يُسـمى «مسـجد حنتـوس»، والـذي يحتضـن ضريـح الإمـام الأوزاعـي المتوفـى سـنة 773 ميلاديـة. لسـت أدري لمـاذا شـخصية مثـل شـخصية الإمـام الأوزاعـي، إمـام بيـروت وسـائر الشـام والمغـرب وصـولًا للأندلـس، والـذي وُلـد فـي مدينـة بعلبـك، هـو عبـد الرحمـن بـن عمـرو بـن يحمـد الأوزاعـي، كان يلقّـب بإمـام أهـل الشـام، وكِنيتـه هـي أبـو عمـرو، ينتمـي إلـى الأوزاع؛ وهـي منطقـة فـي دمشـق سـكَنها فـي غابـر الأيـام العديـد مـن القبائـل، قيـل إنّـه كان أعلـم أهـل الشـام، وعُـرف بأنّـه ثقـة ومـن أخيـار النـاس. كان واحـدًا لا مثيـل لـه فـي زمانـه، فقـد كان عالـم عصـره، لا يخـاف فـي اللـه لومـة لائـم؛ يقـول كلمـة الحـقّ فـي كلّ حـال دون أن يخـاف سـطوة ملـك أو سـلطان.

لسـت أدري لمـاذا أوصـى بدفنـه فـي قريـة «حنتـوس»، لتحمـل بعدهـا اسـمه. أتسـاءل: هـل يعـرف سـكان

المنطقة اليوم مَن هي هذه الشخصية التي تحمل اسم مكان إقامتهم والذي لُقِّب بشفيع المسلمين والنصارى واليهود في العصرين الأموي والعباسي.

يُدفن الإمام الأوزاعي اليوم وحيدًا مع تاريخه محاطًا بعشوائيات في اغتراب دائم كحال سكان المنطقة، وهو مُحاط بالأبينة الإسمنتية بعد أن كان معْلَمًا فريدًا ووحيدًا على شاطئ البحر، حتى تابعيه من البيارتة الذين سكنوا في الأوزاعي قبل الحرب وكانوا يعملون في البحر والمرفأ تركوا الأوزاعي، مكانًا وإمامًا، تدريجيًّا خلال الحرب الأهلية والنزاعات بين الطوائف وبات مرتادو المسجد اليوم يُعدون بالعشرات فقط.

كنيسة سيِّدة البحار

حيّ الكنيسة كان من التسمّيات التي لا تقلّ غرابة عن سابقتها في طفولتي، ماذا تفعل الكنيسة بيننا؟ أتساءل أنا الذي وُلدت بعد الحرب. «المسيحية» بالنسبة لي هي الآخَر الغريب والتي عرفتها من خلال اسم الحيّ، ومن خلال قصة الجارة التي تُدعى منى مارون، المسيحية التي تزوجت مسلمًا ولقَّب سكان الحيّ أولادها باسم عائلتها، ومنهم ابنها، المعروف اليوم في الحيّ، بمحمد مارون. والآخر، المسيحي، لم يُهجَّر من منطقة الأوزاعي فحسب، بل هُجِّر من ساحل المتن الجنوبي بشكل عام، كبلدات حارة حريك والمريجة والليلكي، وكذلك العائلات التي كانت تعجُّ أملاكها بالحدائق وبساتين البرتقال، كما روَّته لي منى مارون.

هي الحرب إذن، التي نعيش مخلّفاتها دون أن نحصل على أجوبة نهائية عن مسبِّباتها وبداياتها ونهايتها المفتوحة. نبحث اليوم عن مسبِّباتها في الكتب والمقالات، وأختصر صورة الآخر بجارتنا وببقايا تلك الكنيسة التي ليس من زمن بعيد علمت أنها شُيِّدت عام 1952 وكان يرتادها سكان الأوزاعي من المسيحيين المتواجدين على الشواطئ.

تقول الرواية التاريخية إنه بعد أحداث 1860 لجأ المسيحيون الهاربون من المذابح في الجبل إلى ساحل الأوزاعي وخلدة والدامور ليسكنوها ويزرعوها ويعيشون فيها. وكانت الأوزاعي قديمًا قريةً معظم سكانها من المسيحيين ومن أشهر عائلاتها: الحسيني وإبراهيم ومتّى وطويل وسعادة ودكّاش.

وتقول الرواية إن مصطافين من المسيحيين كانوا يقصدون منطقة الأوزاعي لقضاء عطلة الصيف بالقرب من البحر، وحتى يمارسوا طقوسهم الدِّينية أشادوا هذه الكنيسة التي سُمّيت بـ«سيدة البحار» بين عامي 1952 - 1953. بعد انتهاء الحرب الأهلية لم يعُد أحد إلى الشاطئ الذي كان مركزًا للاصطياف والمنتجعات السياحية، ولم يعُد حتى سكانها الأصليين من المسيحيين وبقيت أطلال كنيسة «سيدة البحار» تنتظر حتى اليوم عودة أبناءها إليها، مثلما بقي ملفّ الحرب الأهلية مفتوحًا ومستمرًّا وحائلًا دون عودة السكان الأصليين إلى منازلهم وأملاكهم.

لا أجوبة شافية من المطرانية التي تقع الكنيسة في نطاقها الرَّعوي ولا مخططات موضوعة تشي بقرب إعادة بنائها من قِبل بلدية المريجة التي تقع الكنيسة في نطاقها العقاري، سابقًا. وعلى الرغم من أن بعض الكنائس في ساحل المتن الجنوبي قد رُمِّمت وأُعيدت مفاتيحها إلى رعيَّتها إلّا أن كنيسة «سيدة البحار» ما زالت وحيدة تنتظر روّادها.

في الذكرى الخمسين لانطلاقة الحرب الأهلية أجريت مُقارنة بين الأوزاعي قبل الحرب وبعدها؛ هنا مسجد الإمام الأوزاعي الذي كان معلَمًا دينيًّا وثقافيًّا على مدخل بيروت الجنوبي، وهناك كنيسة

«سيدة البحار» وقد تجمَّع الناس عند افتتاحها حاملين العلَم اللبناني، وهذا شاليه «أكابولكو» لصاحبه رجا صعب وبناه فرديناند داغر.

وفي صورة أخرى تستلقي سيِّدتان بلباس البحر تحت أشعة الشمس وتبتسمان للكاميرا. أين تهجَّرت هذه الناس؟ وكيف حَزموا أمتعتهم؟ وفي أي تاريخ تركوا المنطقة؟

في الذكرى الخمسين لبداية الحرب الأهلية لم تعُد الكنيسة المهجَّرة بعد لتؤنِس الإمام الأوزاعي في وحدته، ولم يعُد سكانها المسيحيين ليرمِّموا لنا ذاكرة أناس وناحية وُلدوا وعاشوا فيها وأنجبوا.

خمسون عامًا ولم تنتهِ الحرب ولا زلنا نعيش مخلَّفاتها، في عنفها، في انقساماتها العمودية والأفقية؛ خمسون عامًا ونحن جيل ما بعد الحرب ما زلنا نبحث عن مسبِّباتها وبدايتها ولم ولن نصل إلى النهاية السعيدة.

الحرب: ذكرى تتناسَل من جيل إلى جيل

زهراء سلمان

رغم بُعد زَمانُ وقوعها، لكنّها لا تزال عالقةً في مخيّلة الكثير منّا. انا لم أعِشها، ولكنني تصوّرتها مرارًا في ذاكرتي فهي التي همّشَت هويتي الأمّ وهي التي زادت الفِرقة والتنابذ في بلادي، وهي التي رعرَعَتْ العنف الرمزي في حياتي اليومية وانتقلت تداعياتها إلى أجيالنا الحاضرة.

من أكبر المطبّات التي مرّت على لبنان، تلك الحرب التي اندلعت بين أهله وكان عنوانها «البحث عن هوية موحَّدة» إلّا أنها في نهاية المطاف أدّت إلى تناسي الهوية اللبنانية الوطنية. فمنذ العام ١٩٧٥ حين بدأت الشرارة الأولى إلى نهايتها في العام ١٩٩٠ عاش سكان لبنان صعوبات كثيرة نجمت عنها؛ صعوبات بشرية، عمرانية، اقتصادية، سياسية واجتماعية لم تنتهِ بعد، ولا نزال نعيش تداعياتها، نحن الجيل الحالي. تعدَّدت أنواع العنف في هذه الحرب، عنف جسدي استُخدم بشكل مباشر، عنف الطائفي أدّى إلى زيادة الكراهية في نفوس الناس تجاه بعضهم البعض، عنف سياسي، اقتصادي، نفسي واجتماعي، إضافة إلى عنف رمزي يعيشه لبنان في أيامنا هذه.

منذ وجود لبنان، وُجد كبلد طائفي، تُسمع النعرات الطائفية فيه بين المزاح والجدّ، بلدٌ اعتاد على العنف الطائفي والسياسي. ومن أبرز أنواع العنف المُعاشة في لبنان، العنف الرمزي الذي يتجسّد في رموزٍ ومعاني يظهَر الحقد على ألسنتها، وتهدف إلى فرض الهيمنة الاجتماعية والثقافية دون استخدام العنف الجسدي أو أي نوع من أنواع العنف المباشر، وخصوصًا ما خلّفته فينا الحرب الأهلية التي أهلكت لبنان وزرعت فيه أنواع شتّى من العنف المتوارثة جيلًا بعد جيل. فدائمًا، وبعد كل قراءة عن هذه الحرب، يمرّ أمامنا، حتمًا، مشهدًا من مشاهد العنف الرمزي العالق في أذهاننا جميعًا.

فمن منّا لم يسمع واحدًا من الخطابات الطائفية المتناسلة، وخصوصًا ذلك الذي كان يُقال منذ انقسامات الحرب الأهلية إلى يومنا هذا! تلك الخطابات التي تهدف إلى زرع الخوف من الآخر ووجود مذهبه وكأنه يشكّل تهديدًا وجوديًّا للشخص وبيئته وطائفته. أو مثلًا مَن منّا لم يلاحظ ان كلّ من الطوائف اللبنانية تسرد أحداث الحرب الأهلية على هواها، فتجيِّر الحقّ والحقيقة لمآربها. لكنّ الحقيقة تتكشف عن كونها مخطئة دون شك، فمَن يقتل ويذبح أبناء بلده سوف يظلّ «الحقّ» بعيدًا من متناوله.

لقد تجسَّد هذا العنف بعد الحرب بشكله الرمزي في مواقف عديدة، كالخطابات السياسية التي يُتحفنا بها رؤساء الأحزاب والطوائف، والسياسيون الذين يقومون بدسّ السُّم في العسل لزرع الحقد في النفوس، من خلال الإعلام والفن. وهذا ما يؤدّي إلى تغييب المصلحة العامة ويندرج في خانة الهيمنة الثقافية.

يعمل هذا العنف الرمزي ككتلة سرطانية تهدف إلى نشر الطائفية بما تحمله من رسائلٍ مبطَّنة، ولن يتحقَّق السلام الّا عند استئصالها من سياسيي الوطن وحكّامه وطبقته السياسية. فقد انتشر هذا العنف في جميع أطرافه وصولًا إلى الكبد، أي إلى المؤسّسات التعليمية، فتعمل المدارس والجامعات على نشر هذا «المرض العُضال» والترويج له، عن قصد أو من

دون قصد، وينتج عنه رموزًا تعنيفية ترسخ في أذهان الأطفال والشباب، لينشأ منها جيلٌ بعيد كلّ البُعد عن هويّته اللبنانية، متشبثٌ بهويّته الدِّينية والسياسية، ينشر المصطلحات الطائفية من خلال نقاشاتٍ بسيطة لا يعلم مدى خطورتها ويساهم بخلق النعَرات التي تُميت روح التعايش وتقطع الأمل المتبقّي، ويسلب راحة البلاد ويبثُّ نار الحقد بين الطوائف لتشتعل حتى تحرق هويتنا الأصلية.

سلبت هذه الحرب ما لا يمكن تعويضه منّا ومن مَن عايش الحرب، كإحدى السيدات، وتُكنّى بأمّ نادر، وهي امرأة من المنطقة الشرقية، وقد خسرت ابنها في نزاعٍ غير مجدٍ والتي انتظرته طويلًا، وماتت وهي تنتظر طيرًا يحمل لها خبَرًا عن ابنها الذي قيل لها إنه في سوريا؛ وسليم الذي خسر شعوره بالانتماء الوطني وضاع بين صراع البقاء أو التهجير من منطقة إلى أخرى ليلجأ أخيرًا إلى بلدة الشويفات بحثًا عن مكان يلوذ به؛ أما عن جورج الذي رابط الذُّعر في قلبه حتى صار في عمر الخمسين، فكان يهرول مذعورًا من أصوات هي اليوم تتهيّا ورِثها من أصوات القصف الذي عايَشه منذ طفولته. وهنا نرى أن من تأثّروا هم اشخاص عاديّون مثلَنا، منهم من فقَد عزيز ومنهم من حُرمَ من تراب الوطن ومنهم مَن عُقدت نفسيته بخيوط خوفٍ بات من الماضي، لكن العُنف لا ينسى بل يكبُر في الذاكرة حتى يأكل شرايين الوعي، ويقطَع أحزمة الأمان من قلب المرء، حتّى يظنُّ أن الطمأنينة باتت فخًّا لكرهٍ مكبوت.

أمّا عنّي، فأنا كذلك ضحيّة حرب، حرب سلَبت الأمن والأمان والطمأنينة من بلدي، حربٌ زرَعت خوف التنقّل بين مناطقنا، فجوةٌ لا يُستهان بها. أنا لم أشهد الحرب، ولم أسُدَّ أذنَي بسبب أصوات المدافع والرصاص، لم أتنقّل من منطقة إلى منطقة، لم أخفِ، لم أذبَح، ولم أغيّر طائفتي خوفًا من سَلبٍ روحي.

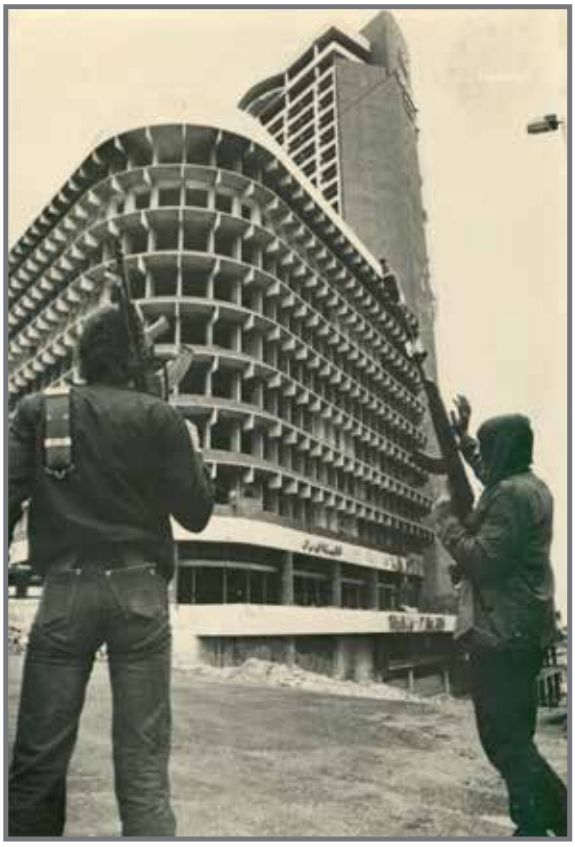

من أرشيف «أمم»

لكنّني اليوم أشهد تداعيات الحرب على بلدي، بلدٌ تقسّم بسبب هذه الحرب فمَن يسكن الجنوب يجهل جوع الشمال ومَن يسكن في الشمال يصِم أذُناه عن مجازر الجنوب. قُسّمت البلاد ونحن على أرضٍ واحدة، لم تُقسم الأرض، بل قُسمَت قلوبنا وهويّتنا وطوائفنا وسياستنا، لكنّنا اجتمعنا، اجتمعنا في العُنف. لم يُقصِّر أحدنا من شتى المناطق والطوائف بقذف تُهمة العُنف على غيره، بل كنّا أكرم الكرَماء بهذا. ولا يزال لبناننا إلى اليوم يتألّمّ بكلّ خطوةٍ يخطوها، حاملًا في قلبه نعَرات توارثَها منذ بدء حرب الجحيم في العام ١٩٧٥. شهدناها قلبًا وقالبًا وجيلًا بعد جيل. فليس الضحية فقط هو مَن يموت في الحرب، فكلنا ضحايا هذه الفتنة، فهناك من شاهد أبناء الوطنِ الواحد يمارسون القتل والذبح تجاه بعضهم قد قُتل،

ومَن عاشها ونجا منها أيضًا قُتل، وَمن هم مثلي ممّن صاروا شواهد على نتائجها القاسية، والمتفاقمة يومًا بعد يوم، يموت مئات المرّات في اليوم، دون معرفة مصيره. انتهى لبنان عندما بدأت دودة العنف تقضم أوراقه الخضراء، حتى أصبح شجرة جرداء تنتظر مَن يسقيها من مياه الهويّة الواضحة والمواطنية الصحيحة.

هنا نرى أنّ مَن تأثّروا بالحرب هم أشخاص عاديّون مثلي ومثلك، منهم مَن فقَد عزيزًا على قلبه، ومنهم مَن حُرم من تراب الوطن وهاجر، ومنهم مَن أصابته عُقدٌ نفسية فمدّت إلى حياته خيوط خوفٍ يعود إلى الماضي، لكنّ العنف لا يُنسى بل يرسُخ في الذاكرة حتى يأكل شرايين الوعي، ويقطع أحزمة الأمان من قلب المَرء حتّى يظنَّ أنّ الطمأنينة باتت فخًّا لكِرهٍ مكبوت.

مرّ وقت طويل على تلك الحرب، لكنها لا زالت عالقة في النفوس والعقول، وآثارها في وجدان كل لبناني عاشَها وفي مَن نُقلت إليه من بعده. نعم أنا لبنانية من أكثر من عشر سنوات، لم أعايشها لكنني شعرت أنها زادت التفرقة في الهوية اللبنانية من أبناء وبنات جيلي، بدلًا من أن تكون هوية وطنية واحدة؛ لكن رغم صغر سني ألّا أنني أعايش نتائجها التي ما زالت راسخة في أعماق أبناء بلدي. زرعت الحرب الأهلية بذور كُرهٍ وحقدٍ واضحين في قلوب اللبنانيين، لم يعد يعلم أبناء الطوائف المختلفة مَن معهم ومَن عليهم، وانتشر العنف الرمزي حتّى أصبح جزءًا من فِطرتنا، في الشوارع والإنترنت والتلفاز والخطابات السياسية والمدارس ومناهجها، ينشأ الطفل على العنف ويتعلّمه منذ نعومةِ أظافره، ولا مفر له، فمَن لم يسمع ويُصادف رموز العنف في منزله، حتمًا يكون قد عاشها في المدرسة، هذا العنف الذي يراه ويسمعه ويمارسه يوميًّا دون تأنيب ضمير ولا وعي نتائجه؛ ليُغرق لبنان في دوامةِ الأزمات والصراع بين الغوص في العنف ومحاولة الانسلاخ عنه والسِّباحةِ عكس التيار.

مع قيام حركات التغيير التي حاولت إنقاذ لبنان من الغَرق قوبلت بالعنف الرمزي من جديد. في كلِّ فترة تزيد الفتنة والانقسام. هذا حال لبنان منذ وُجد، كلٌّ له هويته، متجاهلين هويتهم الأساسية. عاش هكذا وسيفنى على الحال ذاتها، أي صوتٍ يعلو بوجه ضوضاء العنف يُقطع الى الأبد، ومن هنا يحلم المواطن اللبناني بأمل أن يعيش «العيش المشترك» والسلام بين الطوائف يومًا ما والخلاص من شبح الحرب الذي يلاحقه في كل مكان وزمان. لكن عند الخلاص من رموز العنف هذه سيصرخ اللبنانيون صرخةً تعلو على صراخ المتشبّثين به، وسينقى هواء لبنان من غُبار العنف، وستنظف شوارعه من بقايا الطائفية، وستبقى الهوية اللبنانية الموحّدة هي عزّتنا وكرامتنا وما نصبوا إليه، وسيعيش لبنان حرًّا ويشفى من مرضه الخبيث الذي يجلب له هواجس الموت.

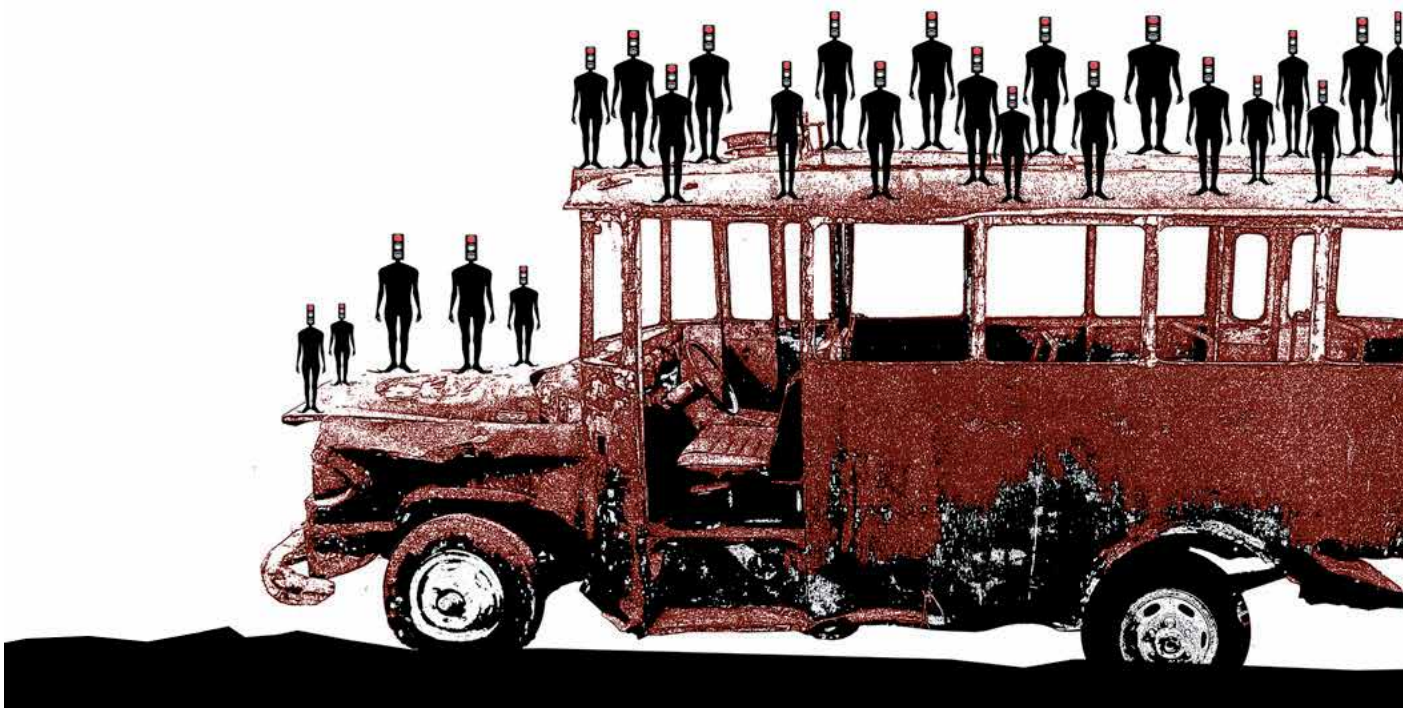

الحرب وسردياتها المتصارِعة: هل نحتاج إلى رواية واحدة؟

سيلين إبراهيم

في أحد الصفوف الجامعية، وعند ساعة الاستراحة ونحن متحلّقين مع بعضنا، صودِف أنه يوم ١٣ نيسان، طرَح علينا أحد الزملاء سؤالًا: «متى انتهت الحرب الأهلية اللبنانية؟».

تردّد البعض، أجاب آخرون بـ«١٩٩٠»، لكن إحدى الزميلات ابتسمت وقالت: «يعني إذا فعلًا خلصِت!» ضحكنا. ثم سألَنا: مَن حارب مَن؟ توقّفنا عن الضحك. كل واحد منّا بدأ يروي قصة مختلفة. منهم مَن قال إن اللبنانيين حاربوا بعضهم، منهم من ناقضوا تلك الفكرة وجاوبوا بانفعال: لا ليسوا اللبنانيين بل جماعات أرادت ان تتصارع على أرضنا؛ ومنهم من قال إنه تدخُّل خارجي أدّى الى تحوُّل لبنان من بلد الازدهار والتطوُّر إلى ساحة معركة كان بالغنى عنها!

كل واحد يملك «حقيقة» خاصة به عن الحرب. وكأن كل واحد منا عاش في زمن معيّن وحفظ قصة معيّنة؛ سؤال بسيط، كشف فجأة عن جُرح لم يلتئم، عن ذاكرة منقسمة، وعن وطن يعيش في أكثر من رواية؛ سؤال كان السبب في أن نعرف أن لكل جماعة روايتها وإننا بعيدين كل البُعد عن الحقيقة.

ما كان صادمًا في تلك اللحظة، ليس فقط التناقض بين القصص، بل اليقين الذي كان يظهر في نبْرة كل شخص. كل طرف بدا واثقًا من روايته كأنها نصٌّ مقدّس، غير قابل للنقاش. من هنا يتبيّن أن الحرب لم تكن فقط معركة على الأرض، بل أيضًا معركة على الرواية.

كيف تُبنى السَّرديات؟

لا نُولد بسردية جاهزة. نحن نسمعها، نتشرّبها، نردّدها ننشرها نُحاكيها بطريقتنا، نعدّل فيها ونتوارى خلْفها، وكلها تأتي في أُطر مغايِرة عن الثانية.

في لبنان، يبني الناس رواياتهم عن الحرب من مصادرهم الخاصة: الجدّ الذي قاتل «دفاعًا عن منطقته»! الأهل الذين يروون الحكاية بحسب وجهة نظرهم! الجارة التي هُجّرت من بيتها! الحزب الذي يُحيي ذكرى «المقاومة» أو «الصمود»! الراوي في كتابه من وجهة نظره أو حتى صمت المدرسة التي تتجنّب الحديث عن الحرب كأنها مرَض مُعدٍ أو كأنها جريمة من المُعيب التحدّث عنها.

غياب كتاب تاريخ موحّد لا يعني فقط أن أبناء المدارس لا يعرفون ما حصل؛ بل يعني أنهم يتخرّجون وكل منهم يعرف «شيئًا مختلفًا» عن الحدَث بحدِّذاته. السَّرديات تتكوّن حين تُكرّر القصة نفسها، بصوتٍ مألوف، في بيئة تُشبهنا. المشكلة تكمن في أن القصص لا تلتقي، لا تتحاور، لا تعترف ببعضها البعض ولا تشبه بعضها، النتيجة: ذاكرة جماعية ممزّقة، كل طرف فيها مُقتنع بأن روايته هي الرواية الحقيقية.

في الحالات الطبيعية وفي بلاد أخرى، وفي بلدان أخرى، حتى حين تختلف الروايات حول الأحداث، ثمّة على الأقل سردية رسمية مرجعية تُدرَّس للطلاب ويعود إليها المواطنون عند الحاجة. أما في لبنان، فالفراغ ترَك لكل جماعة فرصة كتابة تاريخها

الخـاص، معتمـدة علـى الخـوف والذاكـرة الانتقائيـة.

السَّرديات لا تنشأ مـن فـراغ، بـل تتكـوّن عبـر خطـاب يومـي متواصـل: أغنيـة، لوحـة، شـارع يُسـمّى باسـم معركـة، أو نُصُـب تذكاري لشـهيد مجهـول عنـد زاويـة طريـق. كل هـذه العناصـر ترسّـخ صـورة معيّنـة للماضـي، وتحفُرهـا فـي الوعـي الجَمعـي.

ماذا يعني غياب سردية موحّدة؟

فـي بلـد خـرج مـن حـربٍ طويلـة، مـن الطبيعـي أن تكـون هنـاك روايـات متعـدّدة. لكـن حيـن تصبـح هـذه الروايـات جدرانًـا تفصـل بيـن النـاس، تتحـوّل مـن تعدُّديـة إلـى انقسـام.

غيـاب السـردية الموحّـدة فـي لبنـان ليـس مجرَّد مسـألة تاريخيـة. هـو أزمـة هويـة. هـو أزمـة ضَيـاع حيـن لا نتّفـق علـى مـا حصـل، كيـف يمكـن أن نتّفـق معًـا علـى مـا نريـده وكيـف؟ وكيـف يمكـن أن نكـون فـي إطـار موحّـد ضمـن قصـة واحـدة جامعـة تُخبرنـا عـن سـبب وقوعهـا.

ربمـا مـا نحتاجـه ليـس سـردية موحّـدة بالمعنـى الضيّـق، بـل مسـاحة للسَّـرديات المتعـدّدة أن تتواجـه، تتحـاور وتتعاطـف. لا أن تتقاتـل مـن جديـد.

الاعتـراف بالتعـدُّد لا يعنـي الاستسـلام للانقسـام، بـل قـد يكـون خطـوة أولـى نحـو العدالـة. حيـن يقـول كلّ منّـا قصتـه، ويسـمع قصّـة الآخـر، يبـدأ شـيء مـن الشـفاء. لا لأننـا اتفقنـا، بـل لأننـا احترمنـا الاختـلاف دون نكـران أو اسـتعلاء.

قـد تكـون السَّـردية الجامعـة التـي نبحـث عنهـا، فـي الحقيقـة، هـي سـردية الصِّـدق: أن نقبـل بـأن الحـرب

من أرشيف «أمم»

لـم تكـن قصـة واحـدة، بـل عشـرات القصـص، متناقضـة، مؤلمـة، ولكنهـا جميعهـا حقيقية.

كـم مـن مـرّة دخلنـا فـي نقـاش مـع صديـق أو قريـب حـول «مَـن بـدأ الحـرب وكيـف»، أو «مَـن كان علـى حـقّ»، لينتهـي النقـاش بموجـة توتُّـر أو صمـت ثقيـل؟ هـذا ليـس خلافًـا فـي الـرأي فقـط، بـل اختـلاف علـى أساسـيّات بنـاء الذاكـرة.

غيـاب روايـة مشـتركة يعنـي أيضًـا غيـاب شـعور موحّـد بالعدالـة. مَـن يشـعر بأنـه ضحيـة، لا يـرى نفسـه فـي روايـة الآخـر... والأسـوأ، أنـه قـد يشـعر بـأن الألـم الـذي عاشـه يُنكـر أو يُحقَّـر كلّمـا طُرحـت روايـة مغايـرة. والنتيجـة؟ شـعور دائـم بالخِـذلان، وبـأن لا أحـد يفهـم الآخـر فعـلًا. كأن الحـرب لـم تنتـهِ، بـل انتقلـت مـن الشـارع إلـى الذاكـرة.

نـرى هـذا الانقسـام فـي كل مـكان: فـي السياسـة، فـي الإعـلام وحتـى فـي الفـن. حفـلات تأبيـن أو احتفـالات «نصـر» تتزامـن فـي التواريـخ، لكـن تختلـف فـي اللغـة

والرمـوز. مجـازر تُـروى بشـكل بطولـي فـي جهـة، وتُعتبـر وصمـة عـار فـي جهـة أخـرى. لا عجـب أن المصالحـة فـي لبنـان لـم تتحقّـق فعليًّا: فكيـف نتصالـح مـع مـاضٍ لا نتّفـق علـى سـرديته؟

هـذا الغيـاب ينعكـس حتـى علـى حياتنـا اليوميـة: حيـن يتجنّـب البعـض الحديـث عـن الماضـي خوفًـا مـن فَتـح جـراح قديمـة، أو حيـن يسـتخدم آخـرون الحـرب كذريعـة لخطـاب تعبَـوي جديـد. نحـن عالقـون فـي دوّامـة صمـت وصـراع غيـر معلَنيـن.

هل نحتاج إلى سردية موحّدة؟

السؤال ليس بسيطًا.

قـد يقـول البعـض إن السـردية الموحَّـدة ضروريـة لبنـاء وطـن واحـد. فكمـا يحتـاج الجسـد إلـى قلـب واحـد، تحتـاج الدولـة إلـى ذاكـرة جامعـة. روايـة تُمثّـل الجميع، لا تسـتثني أحـدًا، بـل تعتـرف بالضحايـا جميعًـا، وتُديـن الجرائـم كلهـا، دون تبريـر.

لكـن فـي واقـع متشـظٍّ كلبنـان، هـل هـذا ممكـن؟ أم أن محاولـة فـرض سـردية واحـدة سـتؤدّي فقـط إلـى إسـكات أصـوات أخـرى؟ أليسـت هـذه مجازفـة بإعـادة إنتـاج الظُّلـم تحـت اسـم الوحـدة؟

ربمـا مـا نحتاجـه ليـس سـردية موحّـدة بالمعنـى الضيّـق، بـل مسـاحة للسـرديات المتعـدّدة أن تتواجـه، تتحـاور، تتعاطـف. لا أن تتقاتـل مـن جديـد.

ربما نحتاج إلى الحقيقة الكاملة الواضحة والصريحة.

أن تعامُـل الجيـل الجديـد مـع الحـرب ممكـن أن يكـون سـبب انقسـام يُضـاف إلـى مـا نعيشـه اليـوم. إن حاجتنـا كشـباب، اليـوم، ليـس فقـط أن نفهـم مـا الـذي حصـل بـل أن نسـتخلِص منـه العِبـر، أن نرويـه للجيـل القـادم. فبعـد مـرور ٥٠ عامًـا علـى الحـرب أصبـح مـن الضـروري طـيّ صفحـة هـذا الكتـاب بروايـة موحَّـدة جامعـة تُروى بلسـان واحـد لكافـة الأجيـال.

من الرواية إلى المستقبل

فـي غيـاب الروايـة الجامعـة، يصيـر الماضـي عبئًـا لا مصـدرًا للفَهـم. هنـاك مَـن يصمـت خوفًـا مـن الجـراح، وهنـاك مَـن يُعيـد اسـتثماره لصناعـة أعـداء جُـدد.

فـي ختـام هـذا السِّـجال فـي ذلـك الصـف الجامعـي وتلـك الاسـتراحة القصيـرة، لـم نصـل إلـى جـواب موحّد. لكننـا خرَجنـا بأسـئلة.

سـألنا أنفسـنا: هـل مـا سـمعناه فـي بيوتنـا كافٍ لفَهـم مـا حـدث؟ هـل سُـردت القصـة كاملـة؟ أم فقـط الجـزء الـذي يُناسـب البيئـة التـي نشـأنا فيهـا؟

غيـاب السَّـردية الموحّـدة ليـس مجـرّد فوضـى روائيـة، بل علامـة علـى ألـم لـم يُفهـم بعـد. ربمـا تبـدأ المصالحـة لا بتكـرار روايـة واحـدة، بـل بالاسـتماع لـكل الروايـات. ربما تُبنـى الأوطـان لا علـى النسـيان، بـل علـى ربمـا الكتابـة، وربمـا الاسـتماع، وربمـا الحكايـات الصغيـرة التـي نُرويهـا لبعضنـا البعـض، هـي الطريـق نحـو وطـن لا يُجمّـل ماضيـه، ولا يهـرُب منـه، بـل يعتـرف بـه بـكلّ تعقيداتـه.

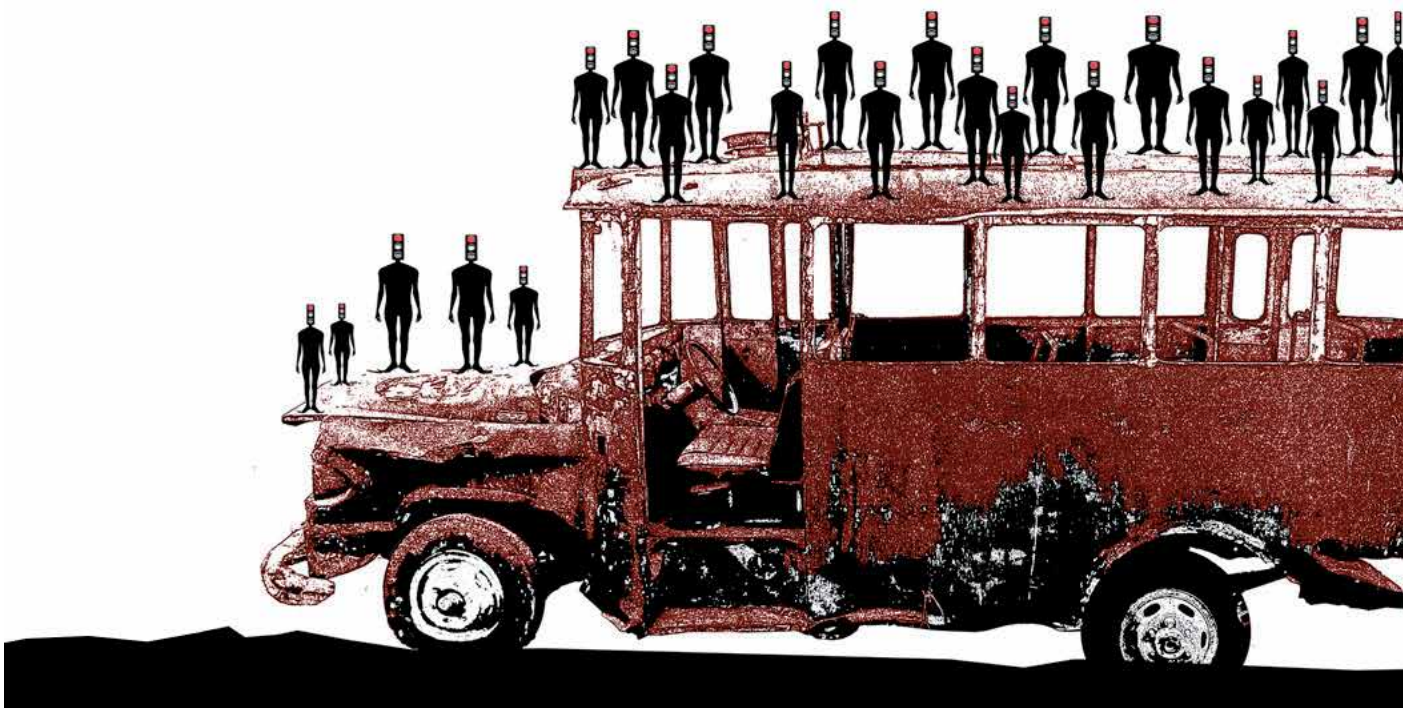

الذاكرة الجماعية والتأريخ الرسمي في لبنان: صراع على رواية الماضي

محمد الخبّازة

الذاكرة الممزَّقة بين الحرب والتاريخ الرسمي

يعيش لبنان منذ نهاية الحرب الأهلية في حالةٍ من الشَلل التاريخي، حيث تمَّ ترحيل أسئلة الحرب إلى هوامش الذاكرة الوطنية. بين ذاكرة جماعية مجروحة وتأريخ رسمي ناقص، يتشكَّل وعي الأجيال الجديدة على أرضية هشّة من السَّرديات المتضارِبة. فالمدارس تتحدّث عن الحرب باعتبارها «ظرفًا استثنائيًا» انتهى باتفاق سياسي، فيما تتوارَث العائلات قصَصًا شخصية مُشبعة بالخوف والدمّ والانقسام، هذا الانفصام بين الذاكرة والتاريخ الرسمي لا ينعكس فقط على نظرتنا للماضي، بل يهدِّد إمكان بناء مستقبَل مشترك.

ما يجعل المسألة أكثر تعقيدًا أن كل حزب سياسي وطائفي في لبنان يملك روايته الخاصة عن الحرب، رواية غالبًا ما تُضخَّم بطولات الذات وتستصغِر أو تُجرّم الآخر، فذاكرة القوات اللبنانية مثلًا تحكي عن معركة بقاء وهوية مسيحيّة مهدَّدة، بينما ترى حركة أمل وحزب الله في ماضيهما مقاومة شرعية ضد التهميش والاحتلال، أما الحركة الوطنية فتتبنّى خطاب الدفاع عن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، لكل سردية قدِّيسوها وشياطينها، ولكل جماعة شهداؤها الذين يتمُّ إحياؤهم كل عام، وكأننا لم نخْرج فعليًا من زمن الحرب.

الأحزاب السياسية الطائفية استثمرت بشكل مباشر في كتابة هذه الروايات، كل منها يعظّم ذاته ويَستهين بالآخر، بحيث تحوَّلت السَّرديات إلى أدوات تعبئة سياسية مستمرة، تغذّي الانقسامات بدلًا من ترميمها.

معبَر خوف في زمن الحرب

كِبرت وأنا أسمع قصص الحرب تتسرَّب في الجلسات العائلية. أمي، مثل كثيرين من جيلها، حملت ذاكرة الخوف في قلبها حتى دون أن تعبِّر عنها بالكلمات دائمًا. من بين القصص التي روَتْها لي، قصة محفورة في ذاكرتي كأنها حدثت معي شخصيًا:

كانت أمّي شابّة في بداية شبابها وكانت برفقة عمّها بسيارة من بلدتها سرعين في قضاء بعلبك إلى بيروت، تحديدًا في العام ١٩٨٣، كما تذكر أمّي، وسَلكوا الطريق عِبر منطقة ضهور الشوير، هناك اعترضهم حاجز مسلح تابع لميليشيا - كانت القوات أو الكتائب كما تذكر أمّي أيضًا، لم تكن تحمل تذكرة هوية وقتها، وبدأ الخوف يعتريهما، حاول عمّها التوسُّل قائلًا: «وحياة القرآن، هيدي بنت خيّي». فما كان من المسلح الذي كان يُمسك زجاجة بيبسي بيده، إلّا أن رد بسخرية قاتلة: «أنا عندي القرآن، والإنجيل، وقنينة البيبسي سوا».

في لحظة بدا فيها أن المصير محسوم، أنقذتهما

صدفة شخصية، أحد المقاتلين على الحاجز كان يعرف عمّها، وهو من بلدتهما، ولولا هذه الصدفة، لربما كانت النتيجة مأساوية. هذه القصة، التي رَوَتها أمّي علينا، لم تكن مجرّد ذكرى شخصية، بل نافذة نطلّ منها على كيف كانت الانتماءات الطائفية والهويات المفروضة قادرة على تحديد الحياة والموت بلحظة واحدة.

هذه القصة، مثل آلاف القصص الأخرى المنتشرة في بيوت اللبنانيين، تكشف حقيقة مريرة: في زمن الحرب، كانت الهوية الطائفية هي جواز المرور الوحيد، أو ربما تذكَرة الموت.

قصة «الحاجز» التي روَتها والدتي ليست مجرد حادثة شخصية، انما تختصر منطق الحرب اللبنانية بأكمله: سَطوة السلاح، والقتل على الهوية، والعيش في ظلِّ الخوف من الاسم والطائفة والانتماء. لم يكن القتل آنذاك نتيجة مواجهة مسلّحة أو اشتباك، بل قرارًا لحظيًّا واعتباطيًّا على حاجز، يتحدّد وفق بطاقة هوية أو لهجة أو مكان ولادة. هذا الواقع حمل معه معنًى مرعبًا للهشاشة الإنسانية في لحظة الحرب، حين يُصبح الانتماء عبئًا قاتلًا.

ورغم أن سنوات طويلة مرّت، إلّا أنّ هذه الروايات لم تُنتسَ. بل ما زالت تُروى في البيوت، أحيانًا بصوتٍ خافت، وأحيانًا كجزء من رواية جماعية تنقلها الأجيال الشابة، إما عبر الحكايات العائلية أو من خلال النشاطات الكشفية والحزبية التي تستحضر الحرب لتغذّي الإحساس بالتهديد المستمر. وهنا يبرز سؤال أساسي: هل يكفي تذكُّر هذه الحكايات لطيِّ صفحتها؟ أم أن استمرار تداوُلها بنفس البُنية، وبغياب أي مراجعة نقدية، يُبقيها حاضرة وقابلة للتكرار؟

في الواقع، السَّرديات الطائفية لا تزال تُروى بالحماسة نفسها، دون تفكيك أو مساءلة. ما يجعل هذا الإرث لا مجرّد ذكرى، بل احتمالًا دائمًا. فالذي

من أرشيف «أمم»

مارَس قتلًا على الهوية لا يقف اليوم على حاجز، لكنه يسكن قصة لم يتمَّ التحقُّق منها، وفي حيّز عام تملؤه صوَر الأبطال «المنقذين» الذين لم يُحاسَبوا يومًا.

السَّرديات الكبرى والتجربة الفردية

القصة التي روَتها والدتي، مثل آلاف القصص الأخرى التي لم تدوَّن رسميًّا، تُظهر بوضوح كيف تُسهم القوى السياسية والطائفية في إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية وفقًا لمصالحها. في لبنان ما بعد الحرب، لم تُبنَ ذاكرة وطنية موحَّدة، بل استمرَّت الذاكرات المجزَّأة.

كل حزب، كل طائفة، وكل منطقة، اختارت أن تحفظ قصتها الخاصة، قصة تُعلي من شأنها وتُشيطن الآخر، المدارس، الكتب، الإعلام، كلها تساهم في تعزيز

هـذه السَّـرديات المتوازيـة التـي نـادرًا مـا تلتقـي. وهكـذا نجـد أن حادثـة صغيـرة علـى حاجـز يمكـن أن تتحـوّل إلـى رمزيـة وطنيـة، فهـي تكشـف أن العبـور بيـن منطقة وأخـرى، بيـن هويـة وأخـرى، لـم يكـن مجـرّد مسـألة تنقُّـل، بـل عبـورًا داخـل شـبكة معقّـدة مـن الخـوف والهويـة والانتمـاء المفـروض.

إن سـرد مثـل هـذه القصـص الشـخصية، ومقارنتهـا مـع الخطابـات السياسـية والرسـمية، يُتيـح لنـا فرصـة نـادرة لمسـاءلة السَّـرديات السـائدة، وإعـادة التفكيـر فـي مـا يعنيـه فعليًّـا أن نبنـي ذاكـرة جماعيـة شـاملة، تتسـع للجميـع، ولا تقتصِـر علـى المنتصريـن أو مَـن يملكـون صوتًـا أعلـى.

الهوية كسلاح، القتل الطائفي وتفكُّك الجيش

شـكّل القتـل علـى الهويـة واحـدةً مـن أبشـع الممارسـات التـي وسَـمت الحـرب الأهليـة اللبنانيـة بطابعهـا الطائفـي العنيـف، فقـد تحوّلـت الهويـة الدينيـة أو المناطقيـة التـي يكشـفها الاسـم أو البطاقـة الشـخصية، إلـى أداة فـرز وإقصـاء دمـوي علـى حواجـز المسـلَّحين، لـم يكـن الانتمـاء الطائفـي مجـرّد سِـمة اجتماعيـة، بـل أصبـح معيـارًا للفنـاء أو النجـاة، وراح ضحيـة هـذا التصنيـف القسـري آلاف المواطنيـن الذيـن لـم يكونـوا جـزءًا فاعـلًا فـي النـزاع المسـلح.

فـي هـذا السـياق، لـم يكـن الجيـش اللبنانـي بمنـأى عـن آثـار الانقسـام الأهلـي، رغـم محـاولات مؤسّسـاته الحفـاظ علـى الحيـاد الوطنـي، إلّا أن الجيـش تفـكَّك فعليًّـا مـع تصاعُـد الصـراع، إذ انقسـم أفـراده وألويتـه وفـق انتماءاتهـم الطائفيـة والجغرافيـة. هـذا الانقسـام لـم يُضعـف فقـط قـدرة المؤسّسـة العسـكرية علـى أداء دورهـا كضامـنٍ للاسـتقرار، بـل جعـل العديـد مـن الجنـود أنفسـهم عُرضـةً للقتـل علـى الهويـة فـي مناطـق التماس.

إن تجربـة القتـل علـى الهويـة وتفـكُّك الجيـش خـلال الحـرب الأهليـة ليسـت مجـرّد محطـات فـي تاريـخ العنـف اللبنانـي، بـل تشـكّل جروحًـا مفتوحـة فـي الذاكـرة الجماعيـة. إن اسـتحضار هـذه الأحـداث بصـدقٍ ووعـي، بعيـدًا مـن السَّـرديات الطائفيـة المتنازِعـة، يشـكّل خطـوة ضروريـة نحـو بنـاء سـردية وطنيـة شـاملة تتجـاوز الانقسـامات، وتؤسِّـس لفَهـم أكثـر نضجًـا لمـاضٍ لا يـزال يرخـي بظلالـه الثقيلـة علـى الحاضـر والمسـتقبل.

هـذه الأمثلـة علـى تفـكُّك الهويـة الوطنيـة وسـقوط الحيـاد المؤسَّسـي تؤكِّـد كيـف أن الذاكـرة الجماعيـة للبنانييـن محمولـة علـى قصـص العنـف والانقسـام، ممـا يجعـل الحاجـة ملحّـة لإعـادة قراءتهـا بوعـيٍ نقـدي ومسـؤول.

انقسـام الذاكـرة بيـن المناطـق وتجـاذُب السَّـرديات المتنازعـة

فـي شـوارع لبنـان، تنطـق الأمثلـة العيانيـة بحجـم الانقسـام، لا يـزال لبنـان اليـوم مقسَّـمًا حتـى فـي ذاكـرة الحـرب: ففـي الضاحيـة الجنوبيـة لبيـروت تـروي الروايـات أن الحـرب كانـت مقاومـة شـرعية ضـد الاعتـداء؛ بينمـا فـي مناطـق كسـروان والمتـن وجبيـل مثـلًا، يتـمُّ الاحتفـاء بمقاومـة الوجـود الفلسـطيني وسـلاح الأحـزاب اليسـارية؛ الأحيـاء والمـدن اللبنانيـة تملـك تواريخهـا الخاصـة، ذكريـات أحيائهـا، أبطالهـا المحلّييـن، وأعداءهـا المرسـومين بدقّـة طائفيـة.

الأكثـر خطـورة أن هـذا التشـظّي فـي السَّـردية لا يقتصـر علـى الكبـار فـي السـنّ، بـل يمتـدّ عبـر الأجيـال، إذ تقوم الأحـزاب، كل فـي مناطقـه، بتلقيـن نُسـخها الخاصـة مـن الماضـي للأبنـاء، عبـر المخيّمـات الكشـفية، والأنشـطة الحزبيـة، وحتـى المناهـج التعليميـة.

السَّرديات الرسمية لم تعترف بهذه التجارب الفردية ولا بهذه الحقيقة المرّة، اختارت السلطة السياسية التي أعقبت الحرب أن تكتب تاريخًا نظيفًا معقَّمًا، يطمس المسؤوليات الجماعية، ويروِّج لفكرة أن الحرب «حصلت بفعل قوى خارجية» أو «سوء فهم داخلي» سرعان ما جرى تجاوُزه بالمصالحة. هكذا، فُرض على الأجيال الجديدة تأريخ رسمي مقطوع عن جذور الألم الحقيقي.

لم يكن الهدف فقط تجاوُز الماضي، بل كذلك حماية الطبقة السياسية التي كانت بمعظمها مسؤولة عن الحرب، فجاء اتفاق الطائف محمّلًا بتفاهمات عريضة على «نسيان» الماضي مقابل تقاسُم الحاضر والسلطة.

السَّرديات المختلفة التي صاغتها الأحزاب اللبنانية حول الحرب الأهلية لم تبقَ حبيسة كتب التاريخ أو خطابات الماضي، بل جرى إعادة إنتاجها وتكريسها، بعناية، في وِجدان الأجيال الجديدة. هذه السَّرديات لا يتمّ تداولها فقط في المناسبات السياسية أو النشرات الحزبية، بل تُبثّ بشكل ممنهَج عبر مخيَّمات كشفية تابعة للأحزاب، حيث يُربّى الأطفال على تمجيد «شهداء الحزب»، واستعادة رموز المعركة، بل حتى ترداد شعارات المرحلة وكأن الحرب لم تنتهِ.

أكثر من ذلك، تمارس الأحزاب سيطرة شبه تامة على الفضاء العام من خلال الرموز البصَرية: صور الشهداء، أعلام الطوائف، الشعارات الحزبية التي تملأ الجدران، أسماء الشوارع والساحات التي تغيّرت لتعكس سردية الطرف المنتصِر في كل منطقة. في الضاحية الجنوبية مثلًا، يروي المكان قصة مقاومة بطولية ضد الاحتلال الإسرائيلي، بينما تروي بعض أحياء المتن وكسروان قصة صمود «مسيحي» ضد خطر وجودي. هكذا يتحوّل المكان إلى مرآة للسَّردية، وإلى أداة تطبيع يومية مع نسخة محدَّدة من التاريخ.

بناء ذاكرة جماعية تتخطّى الانقسامات

إن معالجة هذه الفجوة العميقة بين الذاكرة الجماعية والتأريخ الرسمي تتطلّب شجاعة استثنائية، المطلوب أولًا الاعتراف بتعدّدية الروايات دون إلغاء الآخر، والقبول بأن كل مجتمع، كل طائفة، لها قصتها الخاصة، ولكن هذه القصص ليست بالضرورة متناقضة، بل هي أجزاء من مأساة وطنية كبرى.

التاريخ الرسمي لا يمكن أن يُكتب بصِدق ما لم ينطلق من هذه التجارب الفردية والمعاناة المشتركة، بل من خلال ربط الرواية الوطنية بالقصص الموروثة والحقيقية، نستطيع أن نبني ذاكرة جماعية سليمة، لا تقوم على التناسي أو الكذب أو التضليل، بل على الاعتراف، المساءلة والأمل.

من العنف إلى اللاوعي: الحرب كلُغة غير مرئية للتراث المعاصر

محمد مرواني

في قاموس اللغة، «التراث» هو مجموعة من الموروثات المادية والثقافية التي نرِثها من الأجيال السابقة: مبانٍ، قيَم، عادات... أمّا في تعريف منظمة اليونسكو، فالتراث هو «الإرث الثقافي والطبيعي المشترَك للإنسانية، ذو قيمة استثنائية، يجب الحفاظ عليه وصَونه ونقله للأجيال القادمة». تعريف يبدو مرتبطًا بما هو ثمين ورمزي ومشرّف. لكن، ماذا لو أصبحت الحرب من بين هذه الموروثات؟

في لبنان، لا يمكن اختزال الحرب، ولا سيما الحرب الأهلية، في خانة الحدَث التاريخي الذي مضى. هي لم تنتهِ فعليًّا، بل تحوّلت إلى زمنٍ يُستحضر كفصل دائم من الحكاية اللبنانية، تمامًا كما يُقال «في الشتاء»، «في الصيف» أو «أيام الحرب». أصبحت وحدة زمنية، ومصطلحًا يعرفه الجميع، حتى أولئك الذين لم يُعاصروه.

لقد نجحَت في الترسّخ داخل الذاكرة الجمَعية، لا بوصفها مأساة تمَّ تجاوزها، بل كعنصر حيّ من عناصر تشكيل الهوية. تتسرّب إلى التفاصيل اليومية، إلى ردّات الفعل، إلى العلاقات الاجتماعية، إلى الخطاب العام، وحتى إلى العمارة والأعمال الفنية. من هنا، يمكن القول إن الحرب بكل ما حملته من ويلات، باتت جزءًا من «التراث الحيّ» اللبناني، إرثًا غير مادي، لا ينتقل كمعلومة تاريخية نرويها، بل كسلوك غير مرئي، وكذاكرة محفورة.

العنف غير المرئي: حين يتسلّل «التراث» إلى الشخصية

لم أدرك حجم العنف غير المرئي الذي أحمله في داخلي إلّا بعد مغادرتي لبنان. كان لا بدَّ من مسافة - جغرافية وثقافية - كي أرى ما كان خفيًّا ومألوفًا في آن. في محيطي الجديد، وعند كل تفاعل يومي مع أشخاص من ثقافات مختلفة، بدأت تتكشّف لي سلوكيات كنت أعتبرها طبيعية، ردود فعل مبالَغ فيها في لحظات توتُّر، مَيل تلقائي إلى الحذَر أو الصدام عند مواجهة اختلاف، وطريقة مقاربة الخلافات كما لو كانت معارك لا بدّ من كسبِها أو خسارتها.

حتى اللغة اليومية كشَفت لي وجهًا من هذا العنف الموروث. مصطلحات كنت أستخدمها بسلاسة في عملي كمهندس معماري، كأنها جزء من المفردات التقنية العادية: «خطوط تماس»، «مناطقنا ومناطقهم»، «هدنة» و«رهائن...»؛ كنت أستعملها في وصف سياقات تقنية أو تخطيطية، دون أن ألحظ وقْعها أو رمزيّتها. لكن استغراب زملائي لهذه التعابير جعلني أعيد التفكير في الحمل الثقيل الذي تنطوي عليه.

هذا العنف غير المرئي جَمْعي بامتياز. إنه انعكاس لتجارب وصدمات لم تخضع لأي معالجة حقيقية، بل تراكم فوقها الصمت، وتحوَّل إلى طبقة داخلية في الشخصية الجَمعية. لا يُشترط أن يكون الإنسان قد عاش الحرب كي يحمل أثَرها، فالموروث الثقافي

والاجتماعي الناتج عنها كافٍ لنقلها من جيل إلى آخر دون وعي. ويظهَر حين نخرج من سياقنا المعتاد ونُجبر على رؤية أنفسنا خارجه.

التراث الحيّ: ذاكرة معلّقة وحيّز لم يُغلَق بعد

لا تمرّ ذكرى الحرب الأهلية مرور الكرام في الثالث عشر من نيسان من كل عام. يُستعاد هذا التاريخ كأنه ما زال حيًّا فينا: تُنظَّم فعاليات، وتُكتب مقالات تتكرَّر سنويًّا، ومع ذلك، نادرًا ما يُذكر تاريخ انتهاء الحرب. لا يُقال «انتهت الحرب في...»، بل يُشار فقط إلى اتفاق الطائف، وكأنه مجرّد تسوية سياسية عالقة في النصوص. إن هذه الفجوة الزمنية بين بداية معروفة ونهاية غير محسومة، ليست مجرّد تفصيل، بل تعبير عن حرب لم تُنهَ بالكامل، بل استقرّت كحالة ذهنية دائمة الحضور، كأي هدنة.

هذا التمدُّد الزمني للحرب ينعكس بوضوح في الإنتاج الثقافي والفني. فالمسرح اللبناني، كما السينما والأغنية، لا تزال تستحضر الحرب في تأكيد على أن الذاكرة لم تُطوَ بعد.

في حقل العمارة، المُفترض أن يكون في جوهره فعل بناء لا استحضار للدمار، نجد أن بعض المعماريين استخدموا آثار الحرب كلغة تصميمية. ففي أعمال برنارد خوري، تظهر عناصر مُستوحاة من السلاح، مثل المدافع المعدنية على بعض أسطُح العمارات. أما مبنى «حديقة الحجر» الذي صمّمته المعمارية العالمية لينا غطمة في قلب بيروت، فيُمثل بدوره شهادة على الأثر البصري والنفسي للحرب، إذ اختارت توزيع الفتَحات بشكل عشوائي على الواجهة لمحاكاة آثار الرصاص على مباني العاصمة. وبحسب ما صرّحت في مقابلاتها، فإن هذا التصميم يحمل بُعدًا رمزيًّا لتحويل الجرح إلى منفذٍ للحياة. ومع ذلك، يبقى هذا المسعى الجمالي مرتبط بذاكرة الدمار، ويُحوّل المعاناة إلى صورة مكرّسة. إنها محاولة لترويض النُدبة، لا لمحوها.

فإذا استحضرنا تعريف منظمة اليونسكو للتراث، فإن هذه التصاميم تُبقي الماضي حاضرًا وتُعيد إنتاجه، وهو ما لا ينبغي فعله مع أحداث صادمة كالحرب الأهلية. فلا يمكن التعامل معها على أنها جزء من التراث الذي يجب الحفاظ عليه ونقله إلى الأجيال القادمة. بمعنى آخر، إذا أخذنا مبنى إهراءات مرفأ بيروت كمثال، فإن الحفاظ عليه كشاهد على حدثٍ جلَل هزّ المدينة والبلاد يبدو مشروعًا وضروريًّا، ولكن لا يصحّ محاكاة هذا المبنى المدمَّر في تصاميم معمارية جديدة. هنا يتجلّى الفرق بين تجاوز الماضي وتأبيده في الحاضر.

وعلى الضفة الأخرى من المدينة، وتحديدًا في منطقة السوديكو، يتوسَّط مبنى «بيت بيروت» هذه المساحة التاريخية. هذا المبنى الذي يعود إلى الحقبة العثمانية، خضع لأعمال ترميم وحُوِّل إلى متحف، تُنظم داخله جولات سياحية من المفترض أن تُعرّف

الزائر على تاريخ المبنى وقيمته التاريخية وعلى سيرة المعماري المعروف الذي صمّمه. لكن حتى في هذه الجولات، يُسلَّط الضوء بشكل مبالَغ فيه على الحرب الأهلية، إذ يُقدَّم المبنى أساسًا كمركز قنْص يقع على خطوط التماس، مع قصص كثيرة، أغلبها غير دقيق. وهنا يتضح كيف اختُزلت هوية المبنى بجزءٍ من تاريخه، هو الجزء الذي ربما كان الأجدَر أن يُترك للنسيان، لا أن يُضخَّم في الذاكرة الجماعية.

من جهة ثانية، تُشكّل النُّصُب التذكارية في لبنان مثالًا حيًّا على النزاع الرمزي حول الذاكرة. فبدَل أن تكون معالِم جامعة، أصبحت رموزًا مشحونة بالمعاني السياسية والطائفية، تُعيد استحضار الصراعات الماضية وتُكرّس سرديات متنافسة. ففي حين يُنصَب تمثال لـ«الشهيد البطل» في منطقة ما، يُنظر إليه في منطقة أخرى كـ«مجرم حرب»، بحسب اختلاف المعايير والهويات.

لكل حزب أو طائفة نُصبُها التذكارية في مناطق نفوذها؛ ففي الضاحية الجنوبية، نجد نُصُبًا لمقاتلي حزب الله، مثل «حديقة الشهداء»؛ وفي زحلة، نُصُب تُكرِّم عناصر من القوات اللبنانية؛ وفي الزهراني والنبطية، نُصُب لعناصر من حركة أمل.

ورغم هذا التوزُّع، لا وجود لأي نُصُب وطني رسمي موحَّد يُخلّد كل ضحايا الحرب الأهلية، بكل أطيافهم وانتماءاتهم.

لم تكن هذه النُّصب التِّذكارية وسيلة للمصالحة، بل مرآة لانقسام لم يُحسم بعد. فبدل أن تجمع اللبنانيين على ذاكرة مشتركة، تُعيد ترسيخ الهويات الفئوية وتُبقي تراث الحرب حيًّاً.

أبناء الحرب: صورة نمَطية وهوية معقّدة

خارج لبنان، نُرى كأبناء للحرب. لا تُعرَّف هويتنا من خلال ثقافتنا المتنوّعة، أو إرثنا الفكري، أو إنجازاتنا الفردية، بل غالبًا من خلال ما خلَّفته الحرب فينا أو حولنا. النظرة الأولى إلينا محمّلة بتصوُّرات مُسبقة: إننا نحمل في ذاكرتنا، وربما في جيناتنا، إرثًا من العنف، من الانقسام، من الصراع.

والمؤلِم في الأمر أن هذه النظرة، ليست دومًا بعيدة عن الواقع. لأننا، حتى مَن لم يعايش منا الحرب فعليًا، يحمل تداعياتها في لاوعيه. فذاكرتنا الجماعية مُثقلة بالخسارات: منازل تهدّمت، أحباء اختفوا فجأة، معالم طُمست أو استُبدلت، وصوَر معلّقة على جدران المنازل، والذاكرة لا تزال تنبض بالحزن. إنه عنف لا يُرى، لكنه متجذِّر فينا. لا يُعبَّر عنه دائمًا بالصراخ أو العدوان، بل يظهر في أدقِّ التفاصيل: في لغة الجسد، في الاحتراس من الآخر، في الخوف من الانتماء التام.

وهكذا، يستمرّ الموروث الحربي كعدَسة نُرى من خلالها، وتُختزل الذات بجزء منها، وتُعرَّف فقط من خلال ما كابدَته، لا من خلال ما تطمح إليه. وكأننا لسنا فقط ضحايا مرحلة تاريخية، بل حاملوها، مكرّسوها، وجزءٌ من دورتها. وهذا ما يطرح سؤالًا مؤلمًا: هل نستطيع يومًا، أن نروي قصتنا بعيدًا عن الحرب؟

تراث يجب تفكيكه «لا يوجد شيء أكثر قذارة من الحرب. يجب ألا نعرِضها كبطولة، بل كشيءٍ مروّع. يجب أن نُخيف الناس منها، لا أن نُغريهم بها». بهذه الكلمات، يصف الروائي الروسي فيكتور استافييف الحرب.

في لبنان، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا على اتفاق الطائف، لا تزال الحرب حاضرة كإرث حيّ لم يُمَس. لم يُحاسَب أحد، لا بل أُعفِي جميع مجرمي الحرب

بموجب قانون العفو. لم يُعالج المجتمع، بل تُرك ليتأقلَم مع ندوبه كأنها قدَر. حتى المبادرات التي حملت نوايا صادقة مثل «تنذكر ت ما تنعاد»، وإن أرادت التحذير، ساهمت - من حيث لا تدري - في ترسيخ صورة الحرب كشبح موجود ولكن لا نراه، دائمًا نخشاه، لا كجرحٍ يجب تجاوزه.

بهذا المعنى، الحرب في لبنان لم تُطوَ صفحة منها. إنها موروث، وليس تراثاً يجب علينا الحفاظ عليه ونقله للأجيال، لا يليق أن نحتفي به، بل يجب أن نحمله بمسؤولية، كعبء أخلاقي علينا تفكيكه. إرث يتطلّب شجاعة مضاعفة: شجاعة قول الحقيقة، شجاعة طرح الأسئلة، وشجاعة بناء سردية جديدة، تنطلق من السلام لا من الخوف، من التعدُّد لا من الانقسام، ومن الأمل بغدٍ سليم.

الكتابة كأرشيف نسائي للحرب الأهلية

مِهاد حيدر

وُلدتُ في الذكرى الخامسة لانتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، في منطقة بقاعية اتّخذت فيها ملامح الحرب طابعًا مختلفًا عمّا كانت عليه في مناطق أخرى. علِمنا بوجود الجيش السوري من خلال الحواجز المنتشرة على مفارق طرقات قُرانا، ومن أحاديث عائلتنا الصغيرة التي عايشت تلك الحقبة. ولا تزال آثار السوط على ظهر جدّي شاهدةً حيّة على تلك المرحلة.

وبحكم موقعنا البعيد عن العاصمة، عرفتُ أخبار الحرب مبتورة، مُشرذَمة، كأحجية مبعثَرة جمعتُ شُتاتها من كلمات وأصوات تناهَت إليّ، أعدْتُ تركيبها في ذاكرتي في سنوات لاحقة، عندما وجدتُ نفسي للمرة الأولى أمام سؤالٍ عن سنة اندلاع الحرب الأهلية، فأجبتُ بزمٍّ شفتيّ ورفع حاجبيّ، نافيةً معرفتي. ربما مَن عايش الحرب يملك صدمتها الواضحة، أما في حالة جيل ما بعد الحرب، فالصدمة مستترة، تناقلناها بشكل ضبابي عبر الجينات والأقاويل، زُرعت فينا من دون إرادتنا، في عمقٍ خفيّ من تاريخنا الجمعيّ والشخصيّ.

وما زلنا، بفعلها، نعيش حروبًا أهليةً مصغّرة: بين الأنا والآخر، بين الشبيه والمختلف، عالقين في فخّ الإيديولوجيات، وفي حرب الجسد ضدّ نفسه.

حين يُعاد تشكيل الذاكرة عند خطوط التماس

لم يذكر والدايَ يومًا مصطلح «الحرب الأهلية»، بل كانا يذكرانها بصفتها «الأحداث»، خاصة عندما كنّا نمرّ بالبيوت المهجورة في حوش بردى ومجدلون، حيث كانت آثار الأبواب المخلّعة والسرقات تُظهر استباحة المكان. كانا يذكران إن الناس هناك هُجّروا خلال «الأحداث»، دون تفاصيل إضافية.

كما ليس لدينا في ألبوم صوَرنا العائلية صورة من حفل زفاف والديّ. تقول أمّي إنهما تزوّجا خلال أسبوع الإضرابات عام ١٩٨٧، الإضراب الذي كان إعلانًا عن تمسّك اللبنانيين بوحدة لبنان، ومقدّمة رمزية لنهاية الحروب الطائفية.

تحكي أمّي أنها، بعمر الخمس سنوات، رأت كابوسًا أفزعها: مزار العذراء في زحلة والكعبة يحترقان، وأصابع أطفال تتساقط. استحال الكابوس إلى واقع حين زُنّرت مدرستها وكنيسة مار روكز في رياق وهُدّمتا على يد إحدى الميليشيات المسلّحة.

لم أسمع عبارة «الحرب الأهلية» إلّا من صديقتي التي أخذَتني في أوّل زياراتي إلى بيروت، إلى خطوط التماس بين الشياح وعين الرمّانة، وأخبرتني بحماسة عن أهمية التأريخ الشفوي للجرائم التي سمعتها خلال عملها. حكَت لي الكثير من القصص، كنت أُضطر معها لإغلاق عينيّ وأُذنيّ أثناء تجوالنا، كي أتجنّب تخيّل وجوه النساء والأطفال وصراخهم، أو رؤوس المسلَّحين خلف السواتر.

هذا الغياب في التفاصيل خلّف داخل نفسي تساؤلات عن الماضي. كانت أولى لحظات المواجهة معه خلال المعركة المصغّرة على دوّار الطيونة بين بعض الميليشيات عام ٢٠٢١، حيث

كنت أسكُن على مشارف منطقة فرن الشباك. تلك التجربة علّمتني الخوف المباشر من القذائف والرصاص، التي أسفرت عن سقوط عدد من الضحايا.

وتصاعَد هذا الموقف لاحقًا في حادثة شاحنة الكحالة، حيث اتخذتُ موقفي الشخصي الواضح: معاداة جميع أشكال التسلّح، بغضِّ النظر عن الجهة التي تمثّلها.

وفي تجربة أخرى، عندما أوصلني أحد أقاربنا إلى منزلي في الأشرفية، وسألني ابنه الذي لا يتجاوز الرابعة عشرة: «كيف لكِ أن تسكني في الشرقية؟ هل تشعرين بالأمان هناك؟». استغربتُ كيف تحوّلت الأماكن في ذِهن الأطفال، مثل «بيروت الشرقية» و«بيروت الغربية»، من إشارات جغرافية إلى تقسيمات طائفية ومناطقية.

وكيف لامرأة مثلي، آتية من مناطق الأطراف، لا تزال تهرُب من العنف الجندَري في بيئتها، أن تحظى بالأمان؟

فهمتُ حينها، للمرة الأولى، كيف تتشابك قصص النساء في الحروب مع صراعاتهن اليومية في أنظمة أبوية وطائفية.

وقفتُ أمام المبنى المزروع بالرصاص على دوّار الطيونة. بحثتُ بعينيّ عن آثار جديدة للرصاص، لم يمرّ عليها الإعلام المؤدلَج. وفي ذهني، أطلّت إحدى بطلات علوية صبح، التي تخاف من اجتياز دوّار الطيونة بسبب القذائف.

خفتُ أنا أيضًا من اجتياز طريق صيدا القديمة سيرًا. وأردتُ الهروب مجدَّدًا من العنف البنيوي الذي نُحاصَر به باستمرار.

من أرشيف «أمم»

اللغة النسائية وذاكرتنا المؤجّلة

لطالما شعرتُ أن العنف محرّك التاريخ، ولم يكن لي مهرب منه إلّا عبر اللغة. وجدتُ فيها مساحة للّقاء مع الكثيرات من النساء، عبر كتاباتهن النسائية والنسوية. فما الذي نملكه في هذه البلاد سوى اللغة؟ إنها أداتنا الوحيدة للتوثيق خوفًا من النسيان. نحمل قصصًا نفضح بها أنماط العنف التي نختبرها، ونشارك فيها أحيانًا، بوَعي أو دونه، تحت مسمّيات اجتماعية أو سياسية. في كتابات النساء وجدتُ أهوال الحرب والذكورية موثّقة: الخوف، الغضب، الرغبة وتفكيك البنية التي أنتجت هذا العنف. عرفتُ كيف خاضت بعض النساء الحرب، لا فقط كمقاتلات، بل وناشطات، وكأمّهات مُجبرات على أداء أدوارهن الرعائية.

قرأتُ ليلى البعلبكي، التي أعلنت اندلاع الحرب قبل وقوعها، من خلال روايتها «سفينة حنان إلى القمر»: «لماذا لا تقع الحرب؟»، رافضةً الحداثة، والفجوة الطبقية، والعنف الذكوري، ومُعلنةً: «لا أنتمي إلى أي فريق، وأني أكره الآخرين، كل المتعصّبين». فكنت مثلها، لا أنتمي إلى أي فريق.

ثم عرفتُ جين مقدسي، ونجاح القاضي، ودلال البزري، اللواتي روين تجاربهنّ في الحرب، كاشفات وجوهًا متعدِّدة للذكورية والعنف.

حين قرأت مقدسي، فهمتُ كم أن السؤال عن «المسؤول» ينزوي أخلاقيًا حين نغرق في الطائفية. لكنها رفضَت الصمت، وكتبت عن نساء «تعلّمن جغرافيا البلاد من القصف»، أوليس الأمر نفسه ما زلنا نتعلّمه؟ أو كيف تتحوّل النساء إلى خط دفاع «يتدبّرن البيوت» ويُدرن الأزمات في الفضاءات الخاصة لهن.

نجاح القاضي، في مذكراتها كصحافية حرب، جعلتني أدرك كيف يمتدّ العمل الرعائي خارج الحيّز الخاص، ليُصبح ممارسة سياسية، كما في قصة «أم شفيق» التي كانت تطبخ للحيّ بأكمله. وكيف استخفّ بها المقاتلون من الذكور، لأنها «فتاة لا تفهم المعارك». وأنا أتساءل: ألسنا نحن من نخوضها بأجسادنا كل يوم؟ أليس ثمّة تواطؤ أعمى مع العنف ضد هذه الأجساد، كما في مجزَرتَي المسلخ والكرنتينا؟

وفي السياق نفسه، لفتتني دلال البزري إلى التفاوت الجندري داخل الفصائل التقدّمية، حيث طُلب من النساء مضاعفة الجهد لنَيل الاعتراف بهنّ، فيما جُنّدت الطالبات بوسامة «الرفاق»، وأُسنِدت المهام الرعائية للنساء حتى في أكثر البيئات الحزبية انفتاحًا، وهو ما أحالني إلى النّكات التي ما زلنا نسمعها لليوم «تعي لعندي عالبيت إشرحلك عن الصراع الطبقي».

أوحَت لي إيتيل عدنان، من غُربتها التي لم تكن بعيدة عنّا، أن النساء هنّ الشاهدات الحقيقيات على الخراب. نحن مَن نحفظ ذاكرة البيوت، ونتحدّث عن الحرب بتفاصيلها، ونحمل عبء الحماية. لا أنسى الصورة التي رسَمتها: أمٌّ تستقبل جثة ابنها بصمت كي لا تُخيف إخوته. كم منّا ابتلَعن الصرخة نفسها؟

أشارت إيتيل إلى ما شعرتُ به دومًا: المدينة تُغلق في وجهي، والشوارع التي كانت امتداد خطواتي تصير حكرًا على الذكور. نُقصى من المشهد، ولا فضاءات عامة تحتوينا.

ثم قرأتُ إيمان حميدان، فوجَدت نفسي. نساؤها يُشبهن نساء جيلنا: الخسارات اليومية، الحب الممزَّق والأمومة تحت الرصاص. هناك فهمتُ أن العنف ليس فقط في الحرب، بل في النظرات، اللغة، الأزقّة والحوارات المبتورة.

في «أغنيات للعتمة»، وجدت فيها كيف تتحلّل المدينة، وتفكّك الحرب روابطنا الأخيرة، وتدفعنا، نحو المجهول، حاملات ثِقل الذاكرة.

وسط هذا العنف الأبوي والطائفي، منحَتني كتاباتهن متّسعًا للفهم والتفكيك، حيث تُنقِذ الذاكرة النسائية المؤجّلة ما تبقّى من التاريخ، قبل أن يطمُسه الانحياز.

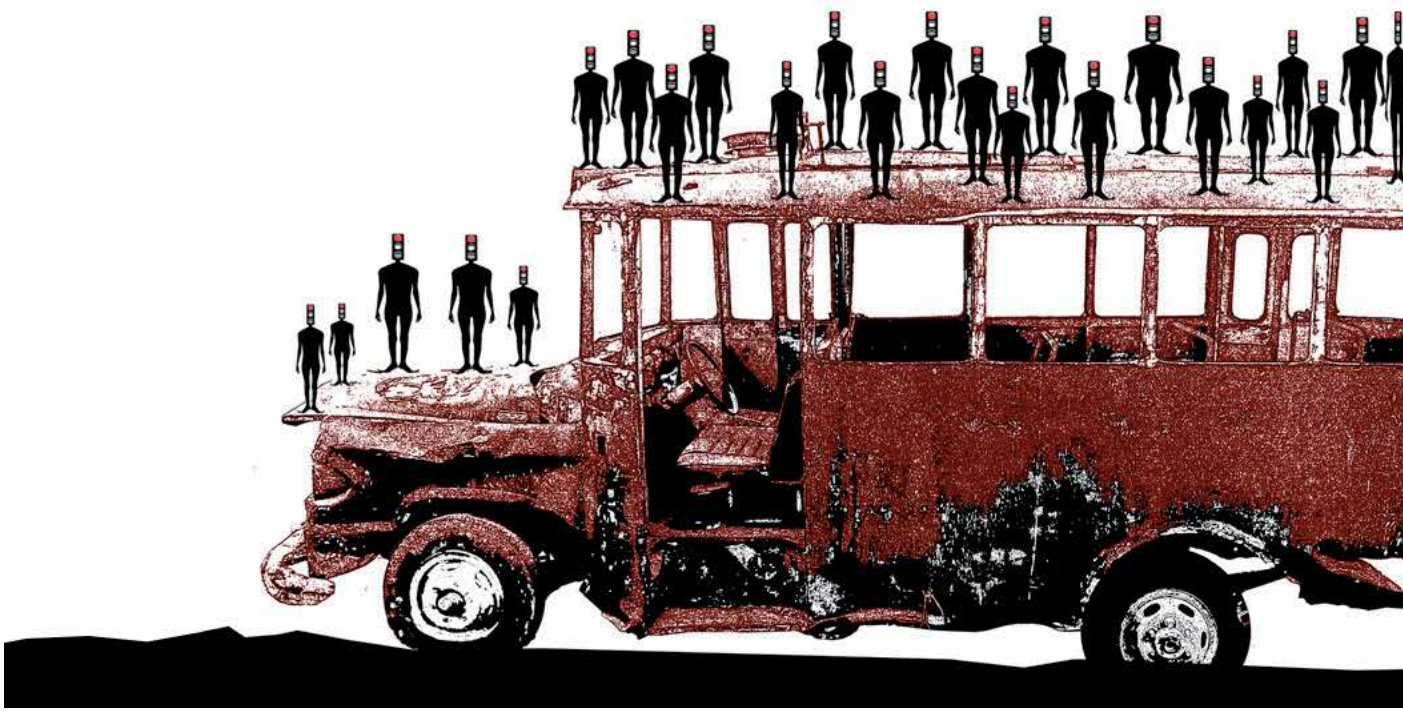

مجزرة في القرية... وجروح لا تندمل

ميريام الحاج

مرَّ أكثر من نصف قرن على الحرب الأهلية اللبنانية، لكنني لا أزال أرى آثارها في كل زاوية من حياتنا. في الشوارع، في الأحاديث، في الصمت الذي يملأ المسافات بين الناس. مجازر الأمس لم تُنسَ، والعنف لم يُطوَ بالكامل. أحيانًا أشعر وكأن الحرب لم تنتهِ فعلاً، بل غيّرت شكلها، وتسلّلت إلينا بصوَر جديدة. أعيش بين جيلٍ خاض تلك الحرب ورفض أن ينسى، وجيلٍ وُلد بعدها لكنه ورَث الجراح، وكأن الذاكرة تنتقل عبر الدَّم. كثيرًا ما أسأل نفسي: هل كان الصمت خيارًا؟ وهل يمكن أن تكون المسامحة مُجدية من دون مساءلة؟ في هذا النص، أعود إلى مجزرة عينطورة التي وقعت في آذار ١٩٧٦، قريتي التي وُلدتُ فيها، لأحاول أن أفهم: هل غياب العدالة جعل العنف يتكرَّر؟ وهل نستطيع أن نبني مستقبلًا إن لم نواجه الماضي بصِدق؟

حاوَرتُ رئيس قسم الحزب السوري القومي الاجتماعي وآخرين من حزب الكتائب، مقارِنةً بين الروايات والشهادات، بهدف البحث عن خيطِ الحقيقة بين وجهات النظر المتناقضة.

تبدأ الأحداث، حسب روايته، حين دخل جيش أحمد الخطيب، لكنهم فوجئوا بأن جميع المنازل تحمل شعار الحزب القومي، رغم أن الكثير من سكان البلدة ينتمون إلى حزب الكتائب، مما أثار شكوك ذلك الجيش.

تصاعَد التوتر بعد خطف عدد من شبّان الكتائب، ما دفَع يوسف فؤاد، من الحزب القومي، لمحاولة إعادة المخطوفين، لكنه اغتيل. بعد انسحاب جيش الخطيب، تجمَّع شباب الكتائب في أنطلياس وقرّروا التوجُّه إلى عينطورة، لكنهم اكتشفوا أن الجيش قد انسحب. ومع ذلك، وقَعت المجزرة في البلدة، حيث سقَط العديد من القوميين ضحايا للعنف الوحشي، وكان بعض القَتل على يد أهل البلدة أنفسهم. من بين الشهادات المؤلمة، كانت قصة أب شاهد ابنه يُقتل، ثم دفع المال ليُدفن بكرامة. بعد المجزرة، ردَّ الحزب القومي بطريقة مشابهة، حيث تمَّ قتل المشاركين في المجزرة وتعذيبهم، بالإضافة إلى قتل مَن لم يُشارك من الكتائب.

سألته عن إحياء الذكرى، فأجاب جازمًا: «نحن لا نريد العودة إلى الماضي، فقط نُحيي ذكرى شهدائنا».

وعندما سألته عن غياب المحاسبة، قال: «نحن لا نبحث عن محاسبة، بل عن اعتذار من الطرف الآخر. حاوَلنا التوصل إلى ذلك عبر اجتماع مع مسؤول الكتائب والكاهن، وكان من المفترض أن نقدِّم اعتذارنا، لكن الطرف الآخر تراجع في اللحظة الأخيرة».

في حواري مع أطراف من حزب الكتائب، وصفوا بلدَتهم بأنها كانت تحت احتلال «الغرباء» من جيش الخطيب والفلسطينيين والحزب القومي. وبما أن هؤلاء ليسوا من أبناء البلدة ويمتلكون القوة العسكرية، اضطُر العديد من الأهالي إلى النزوح نحو بلدتَي المروج وبشلاما بعد تعرُّضهم للقصف.

اتهم جيش الخطيب حزب الكتائب بقتل عائلة من عشرة أشخاص، نجا منهم اثنان فقط. ردًّا على ذلك، شنّ شباب الكتائب هجومًا لاستعادة البلدة، مؤكّدين أن هدفهم كان طرد المقاتلين الغرباء، لا قِتال أبناء البلدة. وأسفر الهجوم عن سقوط قتلى من جميع الأطراف.

أسفرت المجزرة عن مقتل العديد من أبناء البلدة، رغم أنهم لم يكونوا الهدف الأساسي. وأوضح أحد المشاركين أن اجتماعًا جرى بين القوميين في البلدة لمحاولة التوافق وضبط السلاح لتفادي التصعيد. ورغم ذلك، سادَ بعض الأمل حين ظنّوا أن جيش الخطيب لن يجتاح البلدة، بل سيكتفي بالمرور فيها. وجاءت الأحداث بعكس التوقُّعات، إذ اجتاح جيش الخطيب البلدة واحتلّها بالكامل، وتعرّضت للحرق والدمار، ما جعل حياة السكان أكثر صعوبة طيلة ستة أشهر من الاحتلال.

وعند سؤالي عن سبب التراجع عن الاعتذار، أوضح أحد الشهود أن الكتائب لم ترفض الاعتذار، بل المشكلة كانت في شروط الحزب القومي، الذي طالبهم بالاعتراف الكامل بالمسؤولية دون تقديم أي اعتذار مقابِل من جانبه. قال: «أردنا الاعتذار كخطوة للتهدئة، لكن رفض الطرف الآخر الاعتراف بالمسؤولية جعل التسوية مستحيلة».

روى شاهد كان في الحادية عشرة من عمره كيف لا تزال أصوات القصف تلاحقه، مؤكّدًا أن المجزرة طالت الجميع. كما تحدَّث عن عمِّه غير المنتمي لأي طرف سياسي الذي راح ضحية، مثل العديد من الأبرياء في هذا الصراع.

مع كل هذه الحوارات والشهادات التي جمعناها،

يبقى هناك حلقة مفقودة في محاولة فهم مَن هو المظلوم ومَن هو الظالم في هذا الصراع المعقَّد. لا يمكن إنكار بشاعة ما حدَث، لكن من الصعب تحديد مَن كان البادئ في تلك الأحداث وما هو السبب المباشر. الجميع كان يحمل جراحًا، وكان كل طرف يرى نفسه مدافعًا عن هويته ووجوده. هذه الديناميكية المعقّدة جعلت من المستحيل وضع الملامة بالكامل على طرف واحد.

غياب الاعتذار وعدم تخطّي الماضي كان السبب في استمرار دائرة العنف بين الأجيال الجديدة. الشباب الذين نشأوا في ظلِّ هذا الصراع أصبحوا ضحايا لهذا الإرث الثقيل. من دون مواجهة مع الماضي أو اعتراف من الأطراف بما ارتكبته، استمر العنف حيث ظلَّ كل طرف متمسِّكًا بمواقفه.

يتجلّى هذا الواقع بوضوح في كل تحرُّك حزبي أو حتى من خلال مواقف عفوية، حيث يكفي أبسط تصرُّف أو مزحة غير محسوبة لإشعال فتيل التوتُّر، ليُعيد بذلك استحضار رواسب الماضي الدامي. واحدة من أبرز الأمثلة على ذلك كانت في انتخابات عام ٢٠١٨ والتي تزامنت مع شهر آذار، وهو الشهر الذي يُصادف ذكرى المجزرة. في

تلك الفترة، علّق رئيس قسم الكتائب السابق في البلدة صورة للرئيس بشير الجميل أمام منزله، مما أثار غضب الطرف الآخر، الذي اعتبر هذه الخطوة استفزازًا واضحًا. ردُّ الفعل جاء سريعًا، حيث تجمَّع عدد من شباب الطرف الآخر وتوجَّهوا إلى منزل الشخص الذي علّق الصورة. لم يتوقف الأمر عند مجرّد الاعتراض، بل قاموا بتمزيق الصورة والاعتداء عليه جسديًّا، ليكون هذا الحادث تجسيدًا آخر للتوتُّر العميق الذي لا يزال يعشِّش في النفوس.

حادثة أخرى تعكس هذا التوتُّر بشكل مؤلم حدثت عند مجيء شخص، كان قد شارك في المجزرة، إلى البلدة. هذا الشخص، الذي كان يُلقب بـ«المغوار» بسبب قتله لأحد أبناء البلدة، دخل بكل برودة أعصاب إلى المكان ليشرب البيرا أمام الجميع. هذا التصرُّف حرَّك مشاعر الغضب والانتقام مجدَّدًا، فاجتمع عدد من شباب الحزب السوري القومي الاجتماعي وتوجَّهوا إلى منزله للاعتداء عليه. لحسن الحظ، لم تسجَّل أيّ إصابات أو مواجهات عنيفة في تلك اللحظة، ولكن ذلك التصرُّف كان سريعًا ومتهوِّرًا، وكان من الممكن أن يؤدِّي إلى تصعيد أكبر وعواقب أكثر خطورة إذا لم يتمّ احتواؤه في الوقت المناسب.

ثم وقَعت حادثة أخرى خلال احتفالات سيدة العذراء في عينطورة، حيث قام أحد الشبان من البلدة بترداد الأغاني الحزبية الخاصة بالقوات اللبنانية. هذا التصرُّف أثار استفزازًا كبيرًا على الطاولة التي كان يجلس عليها أفراد من الحزب السوري القومي الاجتماعي. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يقوم هؤلاء الأفراد بردِّ فعلٍ سريع، حيث هجموا على الشاب ورموه بزجاجات المشروبات. لحسنِّ الحظ، لم تحدث إصابات، ولكن الحادث كان دليلًا آخر على التوتُّر المتجدد بين الشباب في البلدة، الذي كان مرشَّحًا للانفجار في أي لحظة بسبب تصرفات قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى، لكنها تحمل في طيّاتها تاريخًا طويلًا من الجراح والصراعات.

هذه التصادُمات بين الأجيال تعكس غياب المصالحة. أصبح العنف، سواء في التصرفات أو الكلمات، لغة يتحدث بها الشباب تعبيرًا عن ضيقهم من واقعٍ لم يتمّ تجاوزه. هذا يعمِّق الفجوة بين الطرفين ويجعل طريق المصالحة طويلًا وصعبًا.

رغم مرور أكثر من نصف قرن على مجزرة عينطورة، لا تزال آثارها حاضرة في الذاكرة الجَمعية لأبناء البلدة. تلك الجراح التي لم تُمحَ بعد، تؤثِّر في حياتهم اليومية وتظلُّ جزءًا من واقعهم الذي لم يجد بعد العلاج الكافي. لم تُعالَج جراح الماضي بشكل يخفِّف من أثَرها، ولا تزال المأساة ماثلة أمام الأجيال الجديدة. فالمصالحة الحقيقية لا يمكن أن تتحقَّق من دون مواجهة صادقة مع التاريخ، ومن دون الاعتراف بتفاصيل الماضي الأليم الذي لا يمكن تجاهله.

والواقع، أن العنف لا يختفي مع مرور الزمن، بل قد يتجدَّد بأشكال مختلفة، خصوصًا عندما يطغى الصمت على المطالبة بالعدالة والمحاسبة. فالمماطلة في إحقاق الحقّ غالبًا ما تكون أحد العوامل الرئيسية التي تمنع المجتمع من المضيّ قُدمًا نحو شفاء الجروح القديمة. المحاولات التي جرَت لتحقيق المصالحة كانت صادقة في نواياها، لكنها لم تكن كافية. ذلك التردُّد والتراجع الذي شهدته الأطراف المعنية زاد من تعقيد الأمور، فلم تُسهم هذه المحاولات في شفاء الجراح كما كان مأمولًا، بل ظلَّت العوامل المسبِّبة للصراع كامنة في النفوس.

إن الطريق إلى المصالحة ليس سهلًا، بل هو طريق طويل يتطلَّب جهدًا جماعيًّا حقيقيًّا. المصالحة لا يمكن أن تتمّ من خلال التهدئة الظرفية أو مجرّد الاتفاقات التبسيطية، بل تحتاج إلى اعتراف كامل بالماضي والتعامل معه بجدّية. ورغم الصعوبات الكبيرة التي تعترض هذا المسار، تبقى الخطوات الصغيرة نحو التفاهم والعدالة هي الأساس في بناء مستقبل يختلف عن الماضي، مستقبل خالٍ من الأحقاد والتوترات التي تهدِّد استقرار المجتمع.

أرضُ الرَّصاصِ والدَّم

نجيب العطّار

أَنْ تُولَدَ بعدَ الحربِ لا تَعني، بالضَّرورةِ، أَنَّكَ قد نجَوْتَ منها؛ فالحربُ تَدَّخِرُ لنفسِها بضْعةَ أجيالٍ منَ الضَّحايا المُؤجَّلين. أمَّا أنْ تُولَدَ بعدَ حربٍ «أهليَّةٍ» ولُبنانيَّةٍ في آنٍ معًا، فتِلْكَ مأساةٌ أَشَدُّ فظاعةً وإيلامًا؛ أنْ تتوارَثَ الأجيالُ أنمَّةَ الحربِ، ومُبرِّراتِ اشتِعالِها، جيلًا إثرَ جيلٍ.

لم تَمنَعْ ولادَتي، بعدَ تعليقِها بعشرِ سنينَ أنْ يكونَ ميراثُها، ميراثَ الحربِ، أَقْدَمَ ما أذكرُه عن طُفولَتي؛ رشَّاشَيْ كلاشنيكوف، جِسْمَ قذيفةِ هاون وثُقْبًا في دَرْفَةِ خَزانَةٍ عتيقةٍ. هذا الثَّالوثُ هو كُلُّ ما «استفادَ» به أبناءُ جَدِّي لأبي مِنَ «المَدِّ» الشُّيوعيِّ في البِلادِ. جِسْمُ القذيفةِ كانَ لُعبَتي المُفضَّلَةَ؛ هذا الشَّاهِدَ المُتَمَوْضِعَ استراتيجيًّا في مَدخَلِ بيتِنا حيثُ نَسكُنُ في حيٍّ مِنْ أَتْعَسِ أحياءِ «الضَّاحية»؛ تلكَ البُقعةُ التي أَلْبَسَتْها الحربُ اسمًا وبُؤْسًا لم يكونا فيها، على ذِمَّةِ أبي. رُبَّما، بهذه اللُّعبةِ، كنتُ أُعوِّضُ عدمَ إمكانيَّةِ اللَّعِبِ بالوُرُودِ التي تُعَدُّ عُنصُرًا دخيلًا، ورُبَّما مَشبوهًا، في حيِّنا. فكُنتُ أرى في شَفراتِ القذيفةِ ما يراهُ الطِّفلُ في أوراقِ الوَرْدِ المُتَفَتِّحَة. أَظُنُّ أنِّي نسَجتُ، بمُخيِّلةِ الطِّفلِ الذي كُنتُه، علاقةً مع هذا الجِسمِ الذي اقتحمَ بيتَ جَدِّي في برجِ البراجنة بدايةَ الثَّمانينات. أمَّا الصَّيفُ فأقضيه في القرية. ورغمَ تَوَفُّرِ الوَرْدِ فيها بنسبةٍ معقولةٍ، كانَ أوَّلُ ما أفعلُه عندَ وصولي هو تَفَقُّدٌ مُفاجِئٌ للرَّشَّاشَيْنِ الكَامِنَيْنِ في الخَزانَةِ ذاتِ الدَّرْفَةِ المَثقوبةِ برصاصةٍ ثقيلةٍ اخترقتْها ذاتَ اشتباكٍ قبلَ أنْ تُهجَّرَ «مُؤقَّتًا» إلى القريةِ، وتبقى هُناكَ كغيرِها مِنْ مُهجَّري الحرب.

في سِجِلِّ ألعابي المُفضَّلةِ لُعبةٌ أُخرى؛ «أسلحةُ الخرَز» التي تُباعُ بكثرةٍ للأطفال، وللكبارِ أيضًا. كانَ مُسدَّسُ «الخرَز» العتادَ الوحيدَ الذي أستطيعُ اقتناءَه بمصادرِ التَّمويلِ خاصَّتي، أمَّا بندقيَّة «الخرَز»، ذاتُ المدى البعيدِ والقُدرةِ الكبيرة على إيلامِ خصومي من أطفالِ الحيّ، فكانَ امتلاكي لها يُشبِهُ حُلمَ دولةٍ فقيرةٍ بامتلاكِ سلاحٍ نوويٍّ. لقد كانت سلاحًا رادعًا فعلًا. «حروب الخرَز» حكايةٌ قائمةٌ بذاتِها، لكنِّي أقتبسُ بعضَ فصولِها: في بيتِنا كنتُ أشعرُ بفائضِ قوَّةٍ، طفوليٍّ طبعًا، حينَ أطلبُ شيئًا من إخوتي الأصغرِ سِنًّا؛ أذكرُ أنِّي أمسكتُ مُسدَّسي «الخرَز» وأنا أتفاوضُ مع أختي على حصَّتي من الشُّوكولا التي اشترتْها هي. طبعًا، كانَ الحصولُ على الحصَّةِ أكثرَ سهولةً مع المُسدَّس.

في «الضَّاحية» أيضًا، وفي غيرِها، يَكثُرُ إطلاقُ النَّارِ؛ عندَ الفرحِ، الحزنِ، النَّجاحِ في شهادةٍ رسميَّةٍ، عندَ الاستماعِ إلى بيتِ عتابا لنعيمِ الشَّيخ مثلًا، وأحيانًا بلا سبب. وأحسَبُ نفسي شاهدًا، من جُملةِ شاهدينَ، على ظاهرةٍ لم أزلْ أذكرُها جيِّدًا بقَدْرِ ما أنِّي لا أذكرُ كيف اختفتْ؛ إطلاقُ النَّارِ عندَ خطاباتِ الأمينِ العامِ الأسبقِ لحزبِ اللهِ حسنِ نصرِ الله. أعتقدُ أنَّها كانت في فترةِ بداياتِ الحربِ السُّوريَّةِ. وكانَ أوَّلُ ما نفعلُه، في تلكَ الفترة، عندما نسمعُ إطلاقًا كثيفًا للرَّصاصِ هو أنْ نُقلِّبَ في قنواتِ التِّلفزةِ لنرى إنْ كانَ نصرُ اللهِ يخطبُ أم أنَّ الرَّصاصَ لشأنٍ آخر. وعندَ كُلِّ إطلاقٍ للنَّارِ كنتُ أحلُمُ بشيءٍ واحدٍ فقط؛ أريدُ أنْ أنتقلَ من مسدَّساتِ «الخرَز»

إلـى مسدَّسـاتٍ تُصـدِرُ أصواتًـا قويَّـةً كالتـي أسـمعُها.

هكـذا، بيـنَ سـلاحٍ نُقبِـلُ إليـه وسـلاحٍ يُقبِـلُ علينـا، خَلَـقَ اللَّعِـبُ بمُخلَّفـاتِ الحـربِ، فـي جـوٍّ حربـيٍّ بامتيـازٍ، مَيْلًا فـي نفسـي نحـوَ السِّـلاحِ، وأثـارَ فـي الوقـتِ نفسِـه سـؤالًا عـن موقِعِ السِّـلاحِ مـنْ تلـكَ الحـربِ؛ أيُّهمـا مَهَّـدَ لنُمُـوِّ الآخـر؟ وبالتَّالـي؛ أيُّهمـا سـبقَ الآخـرَ إلى حِسـاباتِ المُتقاتِليـن؟ وللأمانـةِ، إنَّ الـذي خلـقَ هـذا السُّـؤالَ لـديَّ هـو مـا قالَـه لـي أحـدُ النَّاجيـنَ مـنَ المُشـاركةِ فـي الحـربِ فـي مَعْـرِضِ اعتراضِـه علـى حُبِّـي للسِّـلاح: «مَـنْ يَحْمِـلْ مُسدَّسًـا، لـن يـرى العالَـمَ إلَّا مِـن فُوهَـةِ مُسدَّسِـه»، ولا أعـرفُ إنْ كانَ قـدِ اقتبسَـها عـن قائـلٍ آخـرَ أم لا. إذن، نسـتطيعُ إعـادةَ طَـرحِ السُّـؤالِ بمـا يلـي: لـو لـم يَكُـنْ ثَمَّـةَ فصائـلُ وأحـزابٌ مُسـلَّحةٌ، هـل كانـتِ الحـربُ «الأهليَّـةُ» سـتَقَعُ؟ قـد يبـدو السُّـؤالُ سـاذجًا، فأسـبابُ الحـربِ ومُبرِّراتُهـا كانـت أكبـرَ مِـنْ هـذا.

ليـسَ هـدَفُ السُّـؤالِ مُناقشـةَ بديهـةِ أنَّ المُتحاربيـنَ يتحارَبـونَ بالسِّـلاح! إنَّمـا المُـرادُ هـو إعـادةُ تحديـدِ العَلاقـةِ الشَّـرطيَّةِ والمنطقيَّـةِ بيـن الحـربِ الأهليَّـةِ ووجـودِ فصائـلَ مُسـلَّحةٍ؛ فهُـوَ ليـسَ سـؤالًا عـنِ السِّـلاحِ، بـل عـنِ التَّسَـلُّحِ وعَمَّـا يكـونُ، مَنطقيًّـا، بعـدَ التَّسَـلُّحِ فـي بَلَـدٍ لـم يُنْجِـزْ سُـكَّانُه، إلـى اليـومِ، هويَّـةً واحـدةً، أو بالأحـرى لـم يَتَّفِقـوا بعـدُ علـى موقِعِهـم مـنَ العالَـم. هـو سـؤالٌ عـن دورِ السِّـلاح فـي تحديـدِ خيـاراتِ الجماعـات المُسـلَّحة. وبالتَّالـي، هـو سـؤالٌ عـن إمكانيَّـةِ أَلَّا يَكـونَ كُلُّ الـذي كان. وهـذا ليـسَ مِـنْ أجـلِ توزيـعِ المَسـؤوليَّاتِ علـى أئمَّـةِ الحـربِ ومُريديهِـم بِقَـدْرِ مـا أنَّـه مِـنْ أجـلِ ألَّا يكـونَ مـا كانَ، مـرَّةً أُخـرى؛ لئـلَّا تَصيـرَ الحـربُ عُرْفًـا بيننـا.

كانَ التَّمـرُّدُ، أو الثَّـورةُ علـى روايـةٍ أُخـرى، فـي العـام ١٩٥٨ أوَّلَ اسـتطلاعٍ بالنَّـارِ، إنْ جـازَ التَّعبيـرُ، لحالـةِ الانقسـامِ اللُّبنانـيِّ حـولَ هويَّـةِ هـذا البَلَـدِ بيـنَ عربـيٍّ مُسـتغرِقٍ فـي «عُروبتِـه» و«عربـيٍّ» مُسـتَغرِقٍ فـي

من أرشيف «أمم»

غَرْبِيَّتِـه، وهـو انقسـامٌ إيديولوجـيٌّ بامتيـاز. بعـدَ ذلـكَ تعمَّـقَ الانقسـامُ واتَّخـذَ أسـماءَ عـدَّةً، لكـنَّ نُقطـةَ اللَّاعـودةِ لحـربِ العـام ١٩٧٥ كانـتْ مـع توقيـعِ اتِّفـاقِ القاهـرةِ عـام ١٩٦٩ بضغـطٍ مـنَ الخـارجِ نفسِـه الـذي كانـتْ حـربُ العـام ١٩٥٨ مـنْ أجلِـه، أو بالأحـرى مـنْ أجـلِ طبيعـةِ علاقتنـا بـه، معَ وجـودِ تطـوُّرٍ خطيـرٍ تمثَّـلَ فـي أنَّ الخـارجَ، هـذه المـرَّةَ، صـارَ فـي الدَّاخِـلِ.

شـكَّلَ اتِّفـاقُ القاهـرةِ ومجـيءُ الفصائـلِ الفلسـطينيَّةِ إلـى لُبنـان طفـرةً تسـليحيَّةً لصالِـحِ اليسـارِ، فصـارَ الرَّشَّـاشُ مدفعًـا والهـاونُ دبَّابـةً فـي مواجهـةِ اليميـنِ الـذي كانَ تسـلُّحُه بالسُّـلطةِ أكبـرَ مـن تسـلُّحِه بغيرِهـا. وفائـضُ السِّـلاحِ لا يعنـي سـوى فائـضٍ فـي القُـوَّةِ أدَّى، مـعَ جُملـةِ أسـبابٍ، إلـى انفجـارِ البَلَـدِ علـى أيـدي ميليشـياتِ اليميـنِ واليسـارِ. مِـنْ هُنـا، ربَّمـا نسـتطيعُ أنْ نفهـمَ لمـاذا اسـتعملَ الرَّاحِـلُ محسـن إبراهيـم كلمـةَ «اسْتَسْـهَلْنا» عنـدَ نقـدِه الحـربَ؛ هـو الـذي يُحمَـدُ لـه أنَّـه مِـنْ قِلَّـةٍ قليلـةٍ قدَّمَـتْ نقـدًا لمُشـاركتِها فـي الحـربِ بَـدَلًا مـن تقديـمِ التَّبريـراتِ. مِـنْ هُنـا أيضًـا،

يُمكنُ طرحَ السُّؤالِ بصيغةٍ أُخرى؛ لو لم تَكُنْ تلكَ الطَّفرةُ في التَّسَلُّحِ المُتبادَلِ، بغضِّ النَّظَرِ عمَّنْ تَسَلَّحَ أوَّلًا، هل سيكونُ دخولُ الحربِ بالسُّهولةِ التي كانَ عليها؟ بعبارةٍ ثانيةٍ: هل يُمكنُ للميليشيا ألَّا تتصرَّفَ كميليشيا؟ وإذْ إنَّ الحربَ قد وقَعَتْ معَ طَرَفٍ أرادَ تغييرَ النِّظامِ بالحربِ، فهذا يَعني وجودَ طَرَفٍ مُقابِلٍ أرادَ تثبيتَ النِّظامِ نفسِه بالحربِ نفسِها؛ إذَّاكَ، يكونُ السُّؤالُ أعلاهُ بِرَسْمِ الجميع!

الميليشيا، بطبيعتِها، لن تتصرَّفَ كميليشيا وحسب، بل ستُفَكِّرُ كميليشيا! وفي بَلَدٍ تتصدَّرُ مشهدَهُ السِّياسيَّ ميليشياتٌ مُنقسِمةٌ إيديولوجيًّا ضدَّ بعضِها، فإنَّ سلوكَها الطَّبيعيَّ هو تمامًا الذي سَلَكَتْهُ عام ١٩٧٥. مِنْ هُنا، إنَّ وجودَ الميليشياتِ نفسَه يجعَلُ منَ الحربِ الأهليَّةِ نتيجةً حتميَّةً لهذا الوجودِ، إذْ يجعلُ حلَّ الخلافاتِ بغيرِ الحربِ أمرًا أصعبَ منَ الحربِ نفسِها، لأنَّ الميليشيات ستَنظُرُ إلى خصمِها «مِنْ فُوَّهَةِ» مَدفَعِها هذه المرَّة. تمامًا كما كنتُ أشعرُ حينَ كنتُ أُفاوضُ أُختي على قطعةِ الحلوى. بعبارةٍ أُخرى؛ إنَّ وجودَ السِّلاحِ نفسَه قد يكونُ، أحيانًا، مُبرِّرًا كافيًا لاستعمالِه، بخاصَّةٍ في مجتمعاتٍ تتعاطى مع العُنفِ والسِّلاح بشكلٍ يوميٍّ، بل بشكلٍ لَحظِيٍّ أحيانًا. من هُنا، تبرزُ ضرورةُ أنْ تكونَ الدَّولةُ هي الجهةُ الوحيدةُ التي تحتكرُ العُنفَ والسِّلاحَ بوصفِه أداةً للعُنف.

وأخطَرُ ما كانَ في هذه الحربِ، أنَّها كانتْ تقاتُلٌ مِنْ أجلِ فكرةٍ وليسَ مِنْ أجلِ حقٍّ. ولعلَّ الجدوى ليستْ في نقدِ فكرةٍ منَ الأفكارِ المُتصارِعَةِ آنذاكَ، بِقَدْرِ ما أنَّها في نَقْضِ مبدأ القِتالِ مِنْ أجلِ فكرةٍ، أيًّا تَكُنْ هذه الفِكرة. مِنْ هُنا، هي دعوةٌ لمُقاربَةِ العملِ المُسلَّحِ، من حيثُ هو عَمَلٌ جَماعيٌّ، مُقاربَةً تقومُ على فلسفةِ حقوقِ الإنسانِ التي تُميِّزُ، في جُملةِ ما تُميِّزُ، بينَ حقوقٍ طبيعيَّةٍ كالحقِّ في الحياةِ، وحقوقٍ مُكتَسَبةٍ كالحقِّ في إقامةِ نظامٍ سياسيٍّ مُعيَّنٍ أو تغييرِه أو تثبيتِه.

جوهرُ المُقاربةِ أنْ يُعَدَّ القِتالُ مَشروعًا إذا كانَ آخرَ وسيلةٍ للدِّفاعِ عن حقٍّ طبيعيٍّ يُنْتَهَكُ. المُقاوَمةُ، مثلًا، والتي كَثُرَ استعمالُها في أدبيَّاتِ أطرافِ الحربِ آنذاك، هي دِفاعٌ ضدَّ مُحتَلٍّ ينتَهِكُ حقَّيْنِ طبيعيَّيْنِ؛ الحقَّ في حياةٍ كريمةٍ لا تستقيمُ مع وجودِ الاحتلالِ، والحَقَّ في تقريرِ المصيرِ بدَرَجَةٍ أُولى. بهذا، يسقُطُ أيُّ تبريرٍ لاستعمالِ كلمةِ «مُقاومة» في قِتالِ طَرَفٍ لُبنانيٍّ لطَرَفٍ لُبنانيٍّ آخرَ، إذْ أنَّ تقريرَ المصيرِ حقُّ الشَّعبِ اللُّبنانيِّ وليسَ حقَّ جُزْءٍ منه، وبالتَّالي إنَّ الاختلافَ حولَ هذا المصير، حولَ موقعِنا في العالَم مثلًا، لا يُعدُّ انتهاكًا لهذا الحقِّ. أمَّا تغييرُ النِّظامِ، أو تثبيتُه، فهو حقٌّ مُكتَسَبٌ؛ وهو فكرةٌ يُقابِلُها فكرةٌ أُخرى تشتَرِكان في الحقِّ نفسِه؛ حقِّ الوصولِ إلى السُّلطة، وهو حقٌّ لا يجوزُ استعمالُ الحربِ كوسيلةٍ لتحقيقِه. وأفظَعُ ما في القِتالِ من أجلِ فكرةٍ أنَّها تدفعُ المُقاتِلَ إلى أحدِ أمرَيْن؛ إمَّا أنْ يبحثَ عن فكرةٍ مُقدَّسَةٍ يُقاتِلُ من أجلِها، أو أنْ يُقدِّسَ الفكرةَ الأولى، لأنَّ تبريرَ الحربِ بالمُقدَّسِ يُوَفِّرُ للمُقاتلِ مشروعيَّةً مُطلقةً لحربِه.

عَوْدًا عليَّ، لستُ بِدْعًا من اللُّبنانيِّينَ في سِجِلِّي الحربيِّ هذا؛ إذْ لكُلِّ لُبنانيٍّ ولُبنانيَّةٍ تاريخٌ حربيٌّ خاصٌّ؛ بل باتَ عُرْفًا بينَنا أنْ نُؤرِّخَ لشؤونِنا اليوميَّةِ بالحروب. وقد يكونُ نافِعًا استحداثُ وثيقةٍ رسميَّةٍ على شاكلةِ إخراجِ قيدٍ حربيٍّ يضمُّ البياناتِ الحربيَّةَ الخاصَّةَ بالمواطِنِ، أو براءةِ ذِمَّةٍ للدَّولةِ اللُّبنانيَّةِ تُوقَّعُ منَ الزَّوجَيْنِ قبلَ الإنجابِ وتُحمِّلُهم مسؤوليَّةَ تربيةِ طفلٍ في هذه الجُغرافيا المُثقلةِ بالسِّلاحِ وما يُعادلُه. أمَّا أنا، فأرغبُ في إضافةِ بعضِ البياناتِ إلى ما ذُكِرَ أعلاه. بياناتٌ لا قيمةَ لها في هذا

العالَمِ الحربيِّ. بياناتُ حرب العام ٢٠٢٤، مِنْ قَبيلِ: أنْ تنفجِرَ مخازِنُ السِّلاحِ بينَ البيوت؛ أنْ يُضافَ إلى سِجِلِّ الألغامِ والذَّخائرِ غيرِ المُنفجرةِ سِجِلٌّ جديدٌ منها؛ مزيدٌ من الألغامِ المُتَرَبِّصَةِ بزَلَّةِ قَدَمٍ قاتلةٍ؛ والكثيرُ منَ الرَّصاصِ «الطَّائش» وبعضٌ منَ القتلى!

عَوْدٌ على ثالوثِ الحربِ الأهليَّةِ، وعلى حروبِنا التي لا تنتهي؛ قد مُنَّ عليَّ في الحربِ الأخيرةِ أَنْ أحتَفِظَ بِشظِيَّةِ صاروخٍ سقطتْ بالقُربِ من بيتِنا في القرية. أَضَفْتُ فردًا جديدًا لهذه العائلةِ الحربيَّةِ؛ قذيفةَ جَدِّي وثُقبَه، رَشَّاشَيْ أبي وشظيَّتي. وأضفتُ سؤالًا إلى أسئلتي: لو أنِّي عَدَلْتُ عنْ قراري فتزَوَّجْتُ وأنجَبتُ طِفلًا؛ تُرى، هل سيَكتُبُ نَصًّا عن هذه العائلةِ الحربيَّةِ التي سيَرِثُها منِّي، دونَ أنْ يُضيفَ فردًا جديدًا عليها؟ هُنا، في أرضٍ لم تزلْ، كُلَّما غَفَتْ، لا تَحْلُمُ إلَّا بالسَّلام!

تأريخ الحرب الأهلية اللبنانية من منظور جندري

نور حطيط

هذه المقالة وُلدت من ذاكرة. ذاكرة طفلة لمَسَت التفجّع الذي أحاطَ بفخْذة أبيها. طلقة نارية أصابته في الحرب الأهلية اللبنانية وحريق في وجهه تسبب باختفاء بعض ملامحه التي تراجعت إلى الخلف، مع انفجار خزّان الوقود في وجهه حينَ كان جنديًّا باللواء السادس في الجيش اللبناني.

بسرعةٍ، فرضت الكتابة نفسها عليّ، لأتكلم عن المسافة السياسية بيني وبين أبي. لم أتوقّع صعوبة ما قادَني إليه بحثي في تاريخ الحرب الأهلية اللبنانية. فبينما كان أبي يستخدم في كلّ مرة تاريخه لإضفاء نوع من الشرعية على وُجهات نظر معيّنة، كنتُ أقرأ بلا حنين وبتواطؤ مع شغَفي باكتشاف ما هو أبعد من الصندوق الطائفي الذي انتميتُ إليه.

توقّفَ التاريخُ في مدرستي عند الفترة العثمانية، توقّف الزمن في جميع المدارس اللبنانية هناك، لم يكن للحرب الأهلية اللبنانية وجه، مكان أو أثر. لستُ من مناصري التاريخ الموحَّد للحرب الأهلية. وُلدتُ بعدَها، ثمَّ علمتُ أنَّ الذاكرة هي المحرّك الأساسي للحاضر في هذه البقعة، وأنَّ البُعد الأسطوري للماضي لدى كلّ طائفة وجماعة تقوم على تعبئة الذاكرة واستعمالها لتعزيز هذا التقوقع الذي ما زلنا نعيشه!

حينَ كنتُ أسمع مغامرات أبي في هذه الحرب، كنتُ أعتقدُ أنها حرب تخصّ الرجال فقط. نادرًا ما جرى التطرُّق إلى النساء إلّا في بعض كُتب السِّير الذاتية التي قرأتها لاحقًا، أو في المرويات الشفوية، والشهادات التي انتشرت بعد أعوام بعيدة. كنَّ دائمًا في الخلفية، في الظلّ، كما لو أنَّ نسيان رواياتهنَّ، كان جزءًا من مشروع الذاكرة التاريخية لكلّ الأطراف المشاركة.

وكانَ سؤال: كيفَ يُعطي الجندر معنًى لتنظيم المعرفة التاريخية؟ مدخلًا أساسيًا لأبني تصُّورًا مختلفًا عن الحرب الأهلية اللبنانية وعن الفئات التي همّشَتها السَّرديات الكبرى وأزاحتها عن الوسط.

القراءة تعني إعادة القراءة

لستُ بصدد التطرُّق إلى الإشكالات التي أحاطت الجندر في تنظيم المعرفة التاريخية، فما يهمُّني فقط هو ما صاحَب «التأريخ النَّسوي» من أسئلة أثارت لديّ الفضول للبحث والقراءة في تاريخ الحرب الأهلية اللبنانية: لماذا من الضروري رؤية التاريخ من خلال عيون النساء؟ هل شاركت النساء في الحرب الأهلية اللبنانية؟ ما طبيعة مشاركتهن...؟

أخذَت الحرب الأهلية اللبنانية التي دامت ١٥ عامًا، شكل الحرب الطائفية، كُتبت سردياتها وأحداثها من منظور القوى المسيطِرة وبناءً على تجاربها. لم يتمّ التطرُّق إلى النساء وأدوارهنّ المتنوّعة، وإن جرى ذلك، فغالبًا ما كان من باب التنميط واعتبار أعمالهنّ الرعائية أحداثًا خاصة

على سبيل المثال. بعض الشهادات التي سأعرضها تبيِّن عكس ذلك. لتكون أصواتهنَّ أبعدَ من «تفاصيل شخصية».

تعرض الدكتورة روزماري صايغ في ورقتها «المرأة في الحرب الأهلية اللبنانية - قوة البنادق» الصادرة عن «مركز الدراسات العربية والشرق أوسطية» قصة امرأة مسلمة سنِّية انضمت للمشاركة مع ابنتها البالغة من العمر ١٨ عامًا في أعمال الإغاثة ضمن الصليب الأحمر في الحرب. تحكي الأُم عن تجاربها القاسية على الحواجز، خاصة عند نقطة التفتيش المسيحية عندما كانت تُسأل دومًا عن هويتها، فتقول إنَّ اسم عائلتها أنقذَها مرارًا من القتل، هي وأطفالها، كَون والد زوجها يُعدُّ من الشخصيات المؤسِّسة للبنان.

تروي ابنتها أنّ والدتها كانت نشِطة بشكل لافت، إذ كانت تستضيف العائلات اللاجئة والنازحة، توفِّر لهم الطعام والمأوى، وتواصل في الوقت عينه رعاية أطفالها، وتقديم الإسعافات للمصابين.

وتسرد الابنة أنه في إحدى المرات، حين خرجتْ لشراء القهوة من المتجر المجاوِر، حصل انفجار، وبمحض الصدفة كانت تقف خلف عمود، فلم تُصَبْ. وعندما بدأ الدخان ينقشع قليلًا، شاهدت جثثًا على الأرض وجرحى ينزفون. تلفتّت حولها، ورأت مجموعة من النساء المحجَّبات، فأخذت حجاباتهن وبدأت بمعالجة الجرحى وتخفيف عوارض النزيف، محاولة إنقاذ من استطاعت.

يقوم فهمنا لقضايا النساء في الحروب من منطلق نقل الجندر من المجال الخاص إلى العام، على كسر

الثنائية التي تفصل بين هذين المجالين، عندئذٍ، تذهب قضاياهنَّ المتعلقة بحياتهنَّ وأجسادهنّ وعلاقاتهنّ في الحرب للانتقال إلى صلب التاريخ، فتصير قضايا سياسية واجتماعية عامّة حتى تلك المرتبطة بالأعمال الرعائية.

التأريخ النَّسوي يتأسّس جوهريًّا على هذا الانتقال. إذ يحاول إضافة تجارب النساء في كتابة التاريخ، ليست كتجاربَ هامشية، بل كأحداثٍ جوهرية نعي عبرها التأثيرات التي تركتها النساء أثناء انخراطهنّ المُتنوِّع في الحرب الأهلية اللبنانية، خصوصًا مع تغييبهنَّ من السَّرديات الرسمية.

تستعرض الكاتبة اللبنانية رجينا صنيفر في كتابها Je dépose les armes - Une femme dans la guerre du Liban، وهو شهادة شخصية، تجربتها كامرأة عاشت الحرب الأهلية اللبنانية، وانخراطها كمقاتلة ضمن إحدى الميليشيات المسيحية قبل أن تستقيل أخيرًا وتسافر وتنأى بنفسها عن المشاركة في الحرب.

في مثال آخر، ورد في كتاب الدكتورة صايغ

الـذي أشـرتُ إليـه أعـلاه، تشـارك ميشـيل، الفتـاة ذات الثلاثـة عشـر عامًـا، شـهادتها فـي الحـرب. فهـي كانـت تقطـن الأشـرفية ووالدهـا ينتمـي إلـى حـزب الكتائـب بقيـادة بيـار الجميـل الجـدّ. وكان يوجـد أمـام منزلهـا نقطـة تفتيـش، وعندمـا أعلموهـا بحاجتهـم إلـى نسـاء للتحـدُّث عبـر الأجهـزة اللاسـلكية، انخرطـت فـي العمـل فـي مركـز الكتائـب. بعـد ذلـك تلقَّـت أولـى تدريباتهـا فـي منطقـة الـدورة وحملـت السـلاح.

فـي المقلـب الآخـر، تحديـدًا فـي بيـروت الغربيـة، تسـرد دلال البـزري فـي كتابهـا «الحـرب الأهليـة اللبنانيـة»، انخراطهـا فـي الحـزب الشـيوعي اللبنانـي وتعاونهـا مـع الفصائـل الفلسـطينية، ومشـاركتها فـي الجبهـات وفـي الحـرب بشـكلٍ مباشـر. تقـول فـي هـذا السـياق: «مهمّتنـا لا تقتصـر علـى «الداخـل»، أي فـي المدرسـة - المركـز. فبعـد تأميـن الغـذاء، فـي طناجـر ضخمـة، بكميـات تلبّـي شـهيَّة ٥٠ رفيقًـا ورفيقـةً، بعـد أن نكـون قـد أفرغنـا مهارتنـا كلهـا فـي تعديـل النـار، ورشّ الملـح... لـم نكـن نرتـاح، بـل كنّـا نتابـع نهارنـا، وننفِّـذ المهمّـات الخارجيـة.

نسـاء انخرطـنَ أيضًـا فـي عمليـة البنـاء، كإيمـان خليفـة، المعلمـة التـي تحوَّلـت إلـى ناشـطة سـلام، بعـد دعواتهـا للاحتجـاج والاعتصـام علـى الجرائـم التـي ارتكبتهـا الميليشـيات فـي الحـرب الأهليـة اللبنانيـة. وعلـى الرغـم مـن أنَّ مسـيرتها لـم تحقّـق نجاحًـا بسـبب سـيطرة الميليشـيات علـى الحيِّـز العـام، إلّا أنهـا تركـت أثـرًا كبيـرًا، إذ حرّكـت اعتصامـات خارجيـة فـي لنـدن وباريـس ونيويـورك للمطالبـة بوقـف إطـلاق النـار.

مـا أهميـة التوثيـق الشـفوي ومـا علاقتـه بالتأريـخ النسـوي؟

بعـد أكثـر مـن ٢٠ عامًـا علـى انتهـاء الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، أصـدرت «الحركـة القانونيـة العالميـة» LAW، لأول مـرةٍ فـي ٩ حزيـران (يونيـو) تقريـرًا، بنـاءً علـى شـهادات نسـائية بعـد أن أجـرت معهـنّ مقابـلات. وعنـد سـؤالهنّ عـن سـبب عـدم توثيـق قصصهـنّ مـن قبـل، كان جوابهـن: «إنهـا المـرة الأولـى التـي تُسـألنَ فيهـا ويتـم إجـراء مقابـلات معهـنَّ».

حمـل التقريـر عنـوان: «اغتصبونـا بجميـع الطـرق الممكنـة، بطـرق لا يمكـن تصورهـا: جرائـم النـوع الاجتماعـي خـلال الحـرب الأهليـة اللبنانيـة». مـا أثـار ضجـة واسـعة بعـد الكشـف عـن الاغتصـاب الممنهـج التـي قامـت بـه بعـض الميليشـيات بحقهـنَّ فـي الحـرب.

أعادنـي هـذا التقريـر للتفكيـر فـي أهميـة التوثيـق الشـفَوي مـن منظـورٍ نسَـوي. إذْ يُعتبـر التوثيـق جـزءٌ لا يمكـن الاسـتغناء عنـهُ فـي منهجيـة التأريـخ النسَـوي، وهـو مسـار أساسـي فـي إعـادة كتابـة تاريـخ الحـرب الأهليـة مـن منظـور يكشـف عـن التجربـة النسـائية المتنوِّعـة. ويعتـرف التقريـر بـأنَّ الذاكـرة النسـائية، الشـخصية كانـت أم الجَمعيـة، تكشـف علاقـات السـيطرة والقـوة فـي سـردية الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، وتمنـح فرصـة للحديـث عـن العدالـة الانتقاليـة.

كيـف تؤثِّـر القـراءة الجندريـة للحـرب الأهليـة اللبنانيـة علـى مسـتقبلنا؟

عندمـا أعـدْتُ قـراءة تاريـخ الحـرب الأهليـة اللبنانيـة مـن منظـور جنـدري، فهمـت كيـف أنَّ الميليشـيات التـي شـاركت والقـوى التـي كتبـت التاريـخ ونقلـت الأحـداث، أعـادت إنتـاج الإقصـاء والتمييـز فـي المجتمـع الـذي عشـتُ فيـه أغلـب أيـام حياتـي حتّـى انفجـار مرفـأ بيـروت عـام ٢٠٢٠.

تكمن أهمية التأريخ النَّسوي، بالنسبة لي كامرأة تجرّأتْ على الخروج من عباءة الطائفة التي نشأت فيها، في فهم جذور اللامساواة، وتحليل البُعدين العام والخاص معًا دون تغييب لأدوار النساء أو تهميشها، ما منحني ذلك أدوات لإنتاج خطاب جديد، ما بعد طائفي، أسعى من خلاله إلى المطالبة بالعدالة لكلّ من تمّ تهميشه أو إقصاؤه أو ارتُكبت الجرائم في حقه، بغضِّ النظر عن انتمائه.

حين كتابة هذه المقالة، تذكّرتُ ما قالهُ ذات مرة الكاتب الفرنسي جان جينيه: «الكتابة هي الملاذ الأخير لمَن خان». وأنا كتبت لأنني خُنت السَّردية الأولى - سردية طائفتي ومحيطي - لصالح ما تبقّى لي من هذا الوطن.

الحرب لا تغادرني... ولا الذكريات

يارا عبود

في جنوبي لبنان، لم يكن التهجير مجرّد انتقال جغرافي قسْري، بل اقتلاع نفسي عميق غيّر مصائر الآلاف. لم تكن الحرب حدَثًا عابرًا في الزمن، بل لحظة تحوّل جذري في حياة أشخاص خسروا منازلهم، أحبابهم، وأمانهم.

غالبًا ما يُسلَّط الضوء على أبعاد الحروب السياسية أو العسكرية، لكنّ الألم الإنساني والنفسي يظلّ مهمّشًا، رغم كونه الأكثر رسوخًا وتأثيرًا في حياة الناجين.

من بين الفئات التي تضرّرت بشدّة، برزت النساء اللواتي تهجّرت وانتقلت للعيش في غرف ضيّقة من دون خصوصية، واللواتي تركت عندهن الحرب ندوبًا لا تُرى، لكنها ما زالت تؤلِم حتى اليوم.

قصة «زينب»، امرأة مهجّرة من الجنوب، وقصة «برجيت»، امرأة عايَشت الحرب الأهلية اللبنانية، تكشفان لنا أن الألم لا يعرف الزمن، وأن الصدمة لا تعترف بالحدود.

في سنوات من التوتّر الأمني والاعتداءات المتكرِّرة، شهِد الجنوب اللبناني موجات تهجير قاسية. القرى التي كانت تنبُض بالحياة تحوّلت فجأة إلى مناطق خطر، وسكانها اضطُروا إلى الفرار تحت وقْع القصف والهلَع.

لم تكن المشاهد مجرّد لقطات في نشرات الأخبار: منازل مهدّمة، مدارس مُغلقة، حقول مهجورة، وعائلات تبحث عن مأوى في صالات المدارس أو بيوت الأقارب أو حتى في الشوارع.

التهجير ترافَق مع خسائر متعدّدة: مادية، اجتماعية وعاطفية.

الفئات الأكثر هشاشة - النساء، الأطفال، وكبار السن - تلقّت الضربات الأقسى. النساء وَجدن أنفسهن في مواجهة المجهول، يتحمّلن مسؤولية العائلة في ظروف قاسية، في حين كنّ في أمسّ الحاجة إلى من يُنقذهن.

زينب، في أواخر الثلاثينات اليوم، تتذكّر بوضوح اللحظة التي تغيّرت فيها حياتها إلى الأبد. كانت في بداية العشرين، تستعدّ لزفافها، وتحلم بإكمال دراستها في التمريض في بلدة عيترون. عندما قابلتها ذكرت لي بحسرة والدموع على خدَّيها: «لم أكن أتصوّر أن أُضطر إلى الهرب من كل شيء في لحظة واحدة. تركت خلفي بيتي، وأحلامي وخطيبي. حتى صوَري... لم أتمكّن من أخذها معي».

حين بدأت القذائف تنهال عليهم، هرَعت زينب مع عائلتها إلى بيروت. لجأت إلى مدرسة تحوّلت إلى مركز إيواء مؤقّت. الأرض كانت فِراشهم، والجُدران بلا أبواب، والليل طويل وخالٍ من الأمان.

« كنت أنام خائفة، وأستيقظ خائفة، وأعيش في جسدٍ لا يعرف الراحة».

الخبر الأكبر ألمًا والنُدبة الأكثر حفرًا في وعيها وروحها أتياها حين علمت بخبر استشهاد خطيبها: «كأنني متُّ للمرة الثالثة. الأولى حين

خُفت، الثانية حين هَرَبْت، والثالثة حين رحل مَن كنت أحب». تُكمل قصتها بحسرة.

تصِف زينب انهيارها كأنه غرَق بطيء. لم تجد أحدًا يفهم أو يسمع. كلّما حاولت أن تتحدّث عن ألمِها، سمعت كلمات مثل: «كوني قوية... هذه ليست نهاية العالم». لكنها كانت، بالنسبة لها، نهاية عالمها الخاص.

آثار ما عاشته زينب لم تكن فقط لحظات مؤلمة، بل تحوّلت إلى صدَمات نفسية مُزمنة.

تعيش في حالة استنفار دائم، تخاف من الفقدان وتنتظر الكارثة التالية، وكأنها لم تخرج يومًا من دائرة الخطر. أصوات الطائرات تُثير فيها الهلع، فتُعيدها إلى مشاهد الهرب والقصف التي لا تزال تُحاصرها حتى في الأحلام. تتجنّب السير قرب المواقع المزدحمة أو الضيّقة، كأن الجدران تضيق عليها كما ضاق العالم من قبل. فقدَت شهيّتها ونشاطها، ورغبتها في التواصل مع الآخرين، حتى الثقة التي كانت تمنحها بسهولة باتت غائبة. انسحبت من محيطها، وانكفأت على ذاتها، لا لضعفٍ فيها، بل لغياب مَن يسمعها أو يفهمها حقًّا.

تقول: «لم أكن أعرف ما الذي يحدث لي. فقط كنتُ مُتعبة... مُرهقة... أبكي دون سبب».

غياب الدعم النفسي زاد الأمر سوءًا. لم يكن هناك مَن يسأل: «كيف تشعرين؟»، بل كان التركيز كلّه على نجاة جسد. النفس كانت آخر ما يُفكَّر فيه.

ما عاشته زينب لم يكن مجرَّد حزن عابر، بل

من أرشيف «أمم»

سلسلة من التفاعلات النفسية العميقة التي غيّرت علاقتها بنفسها وبالعالم. بعد التهجير والخسارة، بدأت تظهر عليها أعراض اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) بوضوح: كانت تستفيق ليلاً مذعورة من كوابيس متكرِّرة، تطاردُها صوَر الطائرات والدخان وصوت صراخ خطيبها، كأن الزمن توقف عند لحظة الفَقد. تجنّبت أي حديث عن الماضي، وكأن الكلمات نفسها تؤلمها، وغالبًا ما شعَرت بالانفصال عن الواقع، كما لو أن جسدها في مكان وروحها في مكان آخر. الخوف صار يُلاحقها في أبسط اللحظات، من ضوء ينطفئ فجأة، أو صوت مرتفع في الشارع، وكل شيء بات يحمل احتمال الخطر. حتى علاقاتها بأقرب الناس إليها بدأت تتلاشى، فقد شعَرت وكأنها «منعزلة داخل جدار غير مرئي»، لا أحد يراه، ولا أحد يسمع ما يدور خلفه.

هذا الضغط النفسي المتراكم تطوّر لاحقاً إلى نَوبات اكتئاب حادّة، تتجلّى في فقدان الاهتمام بالحياة، الأرَق المستمر والإرهاق العاطفي.

ما عاشته زينب، تكرّر بصيغة أخرى قبل عقود، في تجربة برجيت، وهي امرأة لبنانية من بيروت، من

منطقة الاشرفية تحديدًا، عاشت الحرب الأهلية التي تسبَّبت بخسارتها لطفلها، جورج، وتقول كأنها تعود بالزمن إلى تلك اللحظة المشؤومة: «كنت أعدّ له طعامه... ثم دوّى انفجار. حين دخلت الغرفة، كان كل شيء محترقًا. لم يبقَ من ابني سوى اسمه».

برجيت لا تزال، حتى بعد ثلاثين عامًا، تصرخ عندما تسمع صوت طفل يركض.

«أصرخ بلا وعي: يا جورج! يا جورج! وكأنني أبحث عنه في كل وجه».

عانت برجيت من أعراض شبيهة بما تعيشه زينب؛ فقد كانت الكوابيس تلاحقُها كل ليلة، تُوقظها من نومها على وقْع الخوف ذاته. تمرّ بنوبات هلع مفاجئة، يختنق فيها صوتها ويضيق عليها صدرَها، وكأنها مُحاصرة من كل الجهات. سيطرَت عليها رغبة دائمة في الهروب، لا تعرف إلى أين، لكنها كانت تشعر أن البقاء مؤلِم أكثر. كانت تخشى الارتباط مجدَّدًا، وكأن القلب لا يحتمل خيْبة أخرى، وفقَدت ثقتها بالمجتمع من حولها، فلم تعُد ترى فيه ملاذًا أو أمانًا، بل مرآة لذاك الفَقد القديم.

لكن أكثر ما أدمى قلبها هو ذنبُها الناجي، دون طفلها: «نجَوت، لكنني لا أعرف كيف أعيش بعدَه. شعرت كأن بقائي خيانة»، الألم لا يُغادرها.

برجيت، مثل زينب، لم تجِد من يحتضن ألمَها النفسي. المجتمع صمّ آذانه، والمعايير الاجتماعية كانت قاسي: «قالوا لي: الحياة تستمر. لكنهم لم يقولوا لي كيف أستمر أنا».

ورغم كلّ شيء، رفضت زينب أن تبقى في موقع الضحية. شهور من الألم، قرّرت بعدها أن تُكمل دراستها في التمريض: «أردت أن أفهم جسدي... وأفهم ألَمي... وأساعد نساء أخريات».

انخرطت في وُرش دعْم نفسي، وصارت تُساهم في مبادرات مجتمعية تُعنى بالنساء المتضرّرات من النزاعات.

الصمت الذي دمّرها، حوّلته إلى صوت يدافع عن الألم النفسي وحق النساء في الشفاء.

نساء كثيرات مثل زينب لم يتوقّفن عند الحزن، بل قاوَمن بأساليبهن: من التعليم، إلى العمل، إلى رواية قصصهنّ .

التهجير لا يُقاس بعدد الكيلومترات التي نُجبَر على تركها، بل بالمسافة التي تُبعدنا عن ذَواتنا، عن إحساسنا بالأمان، والهوية.

الحرب لا تنتهي بانتهاء القتال، بل تستمر في النفوس، في الأرَق، في الأحلام الممزّقة، وفي الصمت الطويل.

وحده الاعتراف بالألم، وتوفير مساحة للبوح والشفاء، يمكن أن يُعيد التوازن النفسي.

قصتا زينب وبرجيت تشهدان على أن النساء لا يحملن فقط ذاكرة النجاة، بل أيضًا إمكانيات الصمود والتحوّل.

ومن خلال صوتهنَّ، نحفظ ذاكرة لا يجب أن تُنسى، ونفتح بابًا للشفاء الجمْعي. لأن مَن ينجو بجسده، لا يكون قد نجا فعلًا ... ما لم تُعالَج الروح.

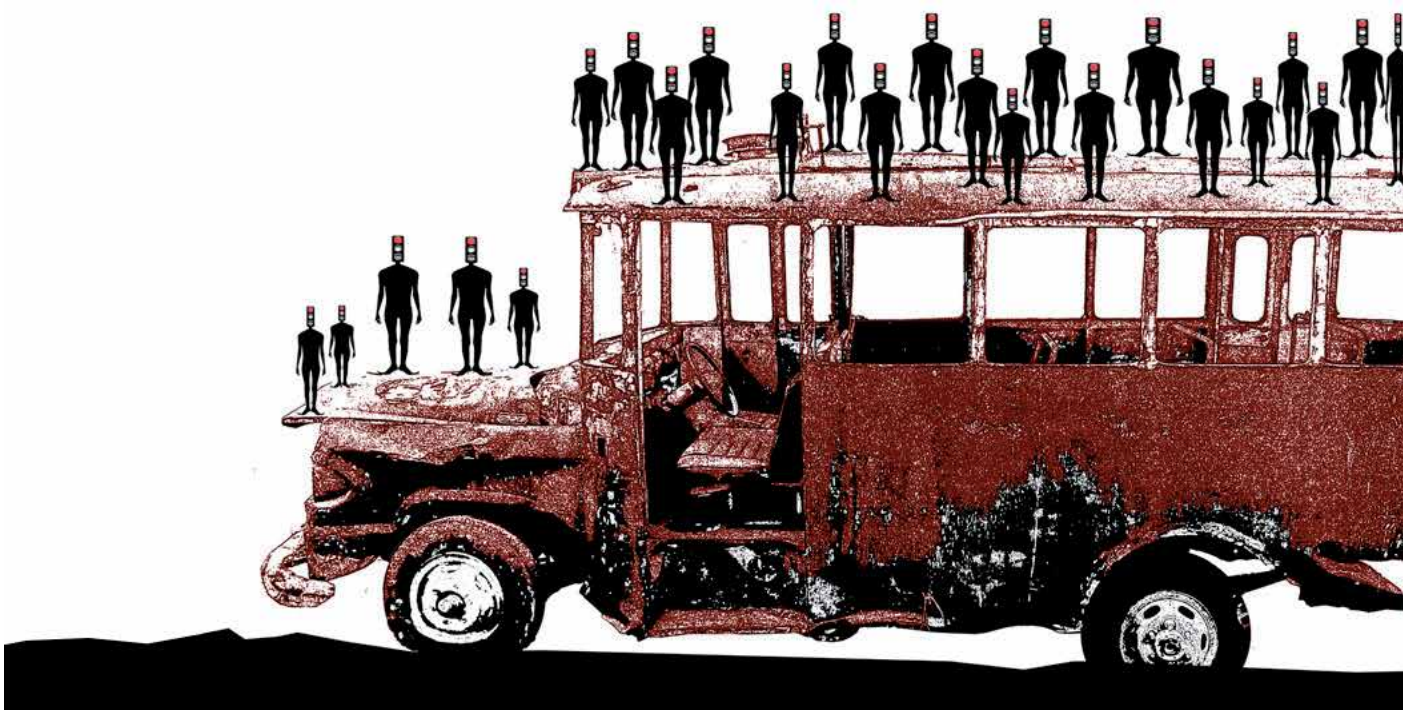

في النهاية
لم يكن كل شيء في رأسي فقط

إليسا بياجيني

منذ عام ولادتي، ٢٠٠٥، وحتى قبله، ولبنان يعيش على وقع عنف واسع، من اضطرابات داخلية إلى نزاعات مسلحة دولية؛ لقد مرّ بالكثير من الحروب. حتى وإن لم أعشها كلها، فقد رأيت صورًا، وسمعت وقرأت الكثير من القصص عن تلك الأيام، وعن أثرها في اللبنانيين بمختلف أعمارهم، وفي طريقة تصرفهم اليوم أو نظرتهم إلى أي حرب أو حتى فكرة صراع. هذه الأشكال من العنف بدأت حتى قبل عام ١٩٧٥، وأكدت دراسات عدة أنه منذ استقلال لبنان عام ١٩٤٣، كان هناك على الأقل أزمتان كبيرتان هزّتا البلاد وأثرتا في شعبها وحكومتها وكل شيء آخر.

ما يميزني أنني شديدة التعاطف. كلما كنتُ مع الناس وسمعت روايات مختلفة عن قصصهم وما مرّوا به في تلك الأوقات الصعبة، كنت أضع نفسي مكانهم، كما أفعل حين أقرأ كتابًا. أحببت أن أعيش التجربة إلى حدِّها الأقصى. لكن هذه المرة، التجربة كانت مخيفة جدًا، لدرجة راودتني كوابيس عنها.

أتذكر قصص أمي بين عامَي ١٩٧٥ و١٩٨٩. كانت تجري دائمًا إلى غرفة الجلوس وتصرخ: "قنبلة!" كلما سمعت صوتًا. كانت في الثالثة أو الرابعة من عمرها فقط، تعيش في بيروت. لا أستطيع أن أتخيل ما يمكن أن يشعر به طفل حين يمرّ بمثل هذا الأمر. هناك أيضًا قصة هروبها من المدرسة مع أختها الصغيرة، خالتي، بعد أن طلبوا من الجميع المغادرة فجأة لأن الوضع بات خطيرًا جدًا. لا أستطيع حتى أن أتصور كيف يمكن لإنسان صغير أن يعيش مثل هذه اللحظات المأسوية. لكنني متأكدة أنَّ هذا من الأسباب الرئيسية التي جعلت منها امرأة قوية تعتمد دائمًا على نفسها. لقد بنت ذاتها الخاصة، وهذه صورة لها لا يمكن أن أغيرها أبدًا. من المؤسف أنها وأبناء جيلها اضطروا لاختبار أمر مماثل في طفولتهم. لا أحد يستحق ذلك، ولا أحد يستحق أن يعيش هذا الكم من الحروب في فترة زمنية قصيرة جدًا.

حتى لبنان نفسه لم يكن يستحق هذا. لم يكن يستحق أن يُعامَل هكذا، كملعب كبير تتصارع فيه الدول، كل طرف يريد أن يكون له دور فيه من دون أي استئذان. دائمًا كان الأمر كذلك، ولبنان وشعبه دفعا الثمن. رغم جماله الذي لا يوصف ومكانته الفريدة، فإن موقعه الجيوسياسي على الخريطة كان واحدًا من أهم أسباب ما مرّ به وما يمرّ به حتى اليوم.

رُويت لي الكثير من القصص عن الحرب المروعة التي وقعت في العام التالي لولادتي، من تموز حتى آب ٢٠٠٦. قصفٌ في كل مكان بلا إنذار. الخوف كان كليًا بين الناس لأن أحدًا لم يكن يعرف أين سيكون الهدف التالي. وكأن كل عظمة في جسدي شعرت هذا الإحساس وعاشته بسبب حساسيتي وتعاطفي. وعندما تكرر الأمر مؤخرًا، لم يكن مرعبًا فحسب، بل بدا لي كأنني عشته من قبل، كأنها لقطات متكررة، مُستعادة ومُعاشة سابقًا. وهذه من أكثر الحقائق رعبًا في مسألة الإحساس المفرط: كيف يمكن أن يفسر أحد مثل هذا الشعور؟

الحرب الأخيرة، التي جاءت بذريعة "الإسناد" لحرب غزة، أودت بحياة آلاف اللبنانيين، فقط لأن هذا كان مهمة المطلوب تنفيذها ضمن أجندة سياسية لدول

خارج لبنان. في منتصف أيلول ٢٠٢٤، عندما هددت الدولة المعتدية بقصف الضاحية في بيروت، جعلونا نغادر الجامعة مبكرًا، لأن جامعتي قريبة جدًا من المنطقة المستهدفة. شعرت أنَّ شيئًا خطيرًا يحدث وأن الوضع يتصاعد فعلًا. لم أرد أن أصدق أيًا من ذلك. كنتُ أفكر أنَّ الأمر مجرد تخويف، أردتُ إقناع نفسي بذلك، لكن في داخلي كنت أشعر برغبة في تكسير شيء، الكثير من الأشياء. لم أستطع تقبّل فكرة أنه، بعد كل التقدم الذي حققته البشرية، ما زالت هذه الأشياء، أعني الحروب، تحدث مجددًا. أعرف أن الحروب جزء من العلاقات الدولية، لكن لم أتوقع أن أعيش واحدة فعلًا. أفلام الرعب خرجت إلى الحياة. حتى وأنا لا أعيش بجوار أماكن القصف مباشرة، كنت أشعر بكل قنبلة، بكل اهتزاز للأرض. كنت أفكر باستمرار بالناس الذين اضطروا لمغادرة منازلهم فجأة، بالذين رأوا مبانيهم تظهر في رسائل التحذير، لقد فقدوا ثمرة ما عملوا له كل حياتهم وذكرياتهم، اختفت منازلهم في دقائق.

لقد شعرت بكل شيء: الاهتزازات، الأصوات، الحقيقية وتلك المتخيلة التي نسجها عقلي. وصلتُ إلى مرحلة لم أعد أميّز فيها بين ما هو حقيقي وما هو في رأسي فقط. أردت من عقلي أن يساعدني على الهروب، لكنني كنت عالقة داخله بالكامل. من المأسوي أنني ما زلت أستطيع أن أرى وأشعر بكل ذلك حتى وأنا أكتب الآن.

ألمُ هذا البلد لا مثيل له. يشبه إنسانًا لديه الكثير من الأصدقاء الرائعين، لكن لا أحد يهتم به حقًا. ينخرط دائمًا في علاقات سامة مع حكومته التي لا يستطيع الانفصال عنها، والارتباط غير الصحي إياه بينه وبين شعبه الذي يبذل جهده لمساعدته، لكنه لا يشعر أن

جهوده كافية، لأنه لم يكن يومًا أولوية هذا البلد. ومن المحزن أنه، رغم أن حب الناس لوطنهم غير مشروط، فإنهم لم يمتلكوا السيطرة الحقيقية عليه.

من المؤلم أن نرى التراجع المستمر في لبنان، وفقدان الجدية والثقة بالحكومة. لا يوجد حتى كتاب تاريخ يُدرّس في المدارس. منذ عام ١٩٨٩ إلى اليوم، لا يزال اتفاق الطائف مجرد وثيقة تاريخية مكتوبة، لا تُترجَم إلى واقع. لم أعرف إن كان عليّ أن أضحك أو أبكي حين سمعت سياسيًا يقول قبل أسابيع: "يجب أن نطبق اتفاق الطائف." الآن؟ بعد أكثر من ثلاثين سنة؟ بعد كل هذا العذاب المستمر لشعب أحب بلده؟ كيف لدولة أن تعامل شعبها بهذا الشكل؟ هل هذا التجاهل هو ما يستحقه الشعب وهو الركيزة الأساسية لقيامها؟

إلى أولئك الذين ما زالوا يتنفسون غبار حرب الأمس،
إلى القلوب المثقلة بصدى الصمت والأحلام الضائعة،
اسمحوا للجروح أن تتكلم بلا كلمات،
ودعوا حكاياتكم تجري مثل العروق بين عظامكم،
ولنكن متعاطفين، متمسكين بإيماننا،
لأجل الذين فقدناهم، والذين سنظل نحبهم ونقدّرهم،
في قلوبنا سيبقى حب هذا الوطن حيًا،
وبكل ما تبقى فينا، سنظل ندافع عنه.

بين الماضي والحاضر

نانسي فاعور

لا يحدث شيء في هذا العالم بلا سبب، حتى الحروب. فالحروب تُبنى ببطء، بهدوء، وبشكل شبه غير مرئي. كل يوم تتراكم التفاصيل الصغيرة، يزداد التوتر، تشتد الكلمات، وتتآكل الثقة، حتى نصل فجأة إلى نقطة اللاعودة. إنها النقطة الفاصلة، عندها تستيقظ لتجد نفسك في قلب حرب، حرب بين أناس تحبهم، من دون أن تعرف حقًا دوافعهم. ما كان يبدو خلافات بسيطة أو مواقف مِن فقدان الثقة يتحوّل إلى نار مشتعلة. فتتساءل: كيف تحوّل شيء عادي إلى حرب؟

لم أعش الحرب الأهلية اللبنانية، لكنني كبرت وأنا أشعر بثقلها بطريقة ما. تلك الحرب شكّلت كل ما يحيط بي: طريقة كلام الناس، نظراتهم إلى بعضهم البعض.

مع أنَّ صدى طلقات الرصاص خمد، فإنَّ حضورًا أعمق ما زال قائمًا، يستمر في تشكيل حياتنا بعد زمن طويل من توقف المعارك.

أتذكر المرة الأولى التي شاهدت فيها فيلم " بيروت الغربية" وأنا في المدرسة الثانوية. لم يُصدم قلبي فقط من الرصاص والحواجز، بل من استمرار الحياة حولها: الأطفال بقوا يلعبون، الأصدقاء يختلفون، والناس يضحكون. وفي مرة أخرى، شغّلت معلمة أغنية فيروز" لبيروت". لم أفهم لماذا شعرت بضيق في صدري، لم أعش الدمار الذي غنّت عنه، لكنني ـ بطريقة ما ـ شعرت به.

هذه اللحظات جعلت الحرب أقرب إليّ مما فعل أي كتاب تاريخ. كشفت لي أن الماضي لا يزال يتنفس من خلال الثقافة، العاطفة والصمت. لذلك أريد أن أستكشف كيف ما زالت ندوب الحرب تؤثر فينا اليوم؛ ندوب صاغها عنف غير مرئي. عنف يتجلى في أفكارنا، في تعاملنا مع بعضنا البعض، وفي الأنظمة التي نعيش داخلها. إلى جانب ذلك، تترك الحرب خلفها جراحًا نفسية وأعباء اقتصادية نعيشها يوميًا.

العنف غير المرئي ليس متعلقاً بما نراه، بل ما نحمله بداخلنا ولا نجد دائمًا الكلمات لشرحه. في الحرب الأهلية اللبنانية، كثيرون ممن لم يُصابوا جسديًا جُرحوا بطرق أعمق وأكثر صمتًا. انقلب الناس على بعضهم البعض، ليس لخلافات شخصية، بل بسبب الدين، أو الطائفة، أو الجماعة التي قيل لهم أن يتبعوها. أعتقد أن كثيرين لم يرغبوا فعلًا في الحرب، كانوا فقط يطيعون الأوامر، وانجرفوا في تيار أكبر منهم. بعض الشبان حملوا السلاح للمرة الأولى في حياتهم وشعروا بالقوة، لكنهم لم يفهموا الثمن. وماذا يبقى عندما يزول هذا الشعور ولا يبقى سوى الحزن؟ حين تفقد/ين شخصًا تحبه/تحبينه، تبقى أسئلة تطاردك: هل كان الأمر يستحق؟ لماذا حدث هذا؟ فكّر/ي في الأم التي فقدت ابنها، أو الابنة التي فقدت أباها، مصدر قوتها الوحيد. كيف واصلت الحياة؟ لا بد أنها عاشت بألم، مرارة وغضب تجاه أناس لم تعرفهم يومًا. هذا الغضب يصبح موروثًا، يُتناقل ليس بسبب الحقيقة، بل بسبب الصمت وسوء الفهم. وهذه واحدة من أكثر

تـرِكات الحـرب إيلامًـا: أنهـا تسـتمر تعيـش فينـا حتـى بعـد أن تنتهـي.

ومـاذا عـن الأطفـال الذيـن كبـروا علـى أصـوات الرصـاص، وشـهدوا المـوت، وفقـدوا حقهـم فـي طفولـة عاديـة؟ هـل تعتقد/يـن أنهـم كبـروا بـلا نـدوب أو ألـم أو صدمـات؟ لقـد صـاروا بالغيـن، لكـن كثيريـن منهـم مـا زالـوا يحملـون أثقـال الماضـي. كل مـرة يسـمعون فيهـا طلقـة، يعـود الخـوف ويقبـض عليهـم مـن جديـد. هـذا العنـف غيـر المرئـي جـزء مـن وجودنـا اليومـي. شـكّل الطريقـة التـي نتعامـل بهـا مـع بعضنـا، والطريقـة التـي نربـي بهـا الجيـل الجديـد. إنـه لا يخـص الماضـي فحسـب، بـل يؤثـر علـى حاضرنـا ومسـتقبلنا أيضًـا.

إن تروما الحـرب لا تطـال فقـط مـن قاتـل فيهـا؛ بـل تطالنـا جميعًـا، حتـى مـن لـم يكونـوا وُلدوا/وُلـدن وقتهـا. إنهـا تظهـر فـي تعاملنـا مـع بعضنـا البعـض. لهـذا مـن المهـم أن نعتـرف بالعنـف غيـر المرئـي، أن نفهـم النـدوب التـي نحملهـا. فـأول خطـوة للشـفاء هـي تحديـد المشـكلة. لأنـه عندهـا فقـط يمكـن أن نبـدأ رحلـة الشـفاء، ليـس كأفـراد فقـط، بـل كمجتمـع. عندهـا فقـط يمكـن أن نكسـر حلقـة الصمـت ونـورّث فهمًـا، تعاطفًـا وسـلامًا.

الحـروب لا تقتـل النـاس أو تجرحهـم جسـديًا فقـط؛ بـل تدمـر أيضًـا الأسـس التـي تقـوم عليهـا حياتهـم. أثنـاء الحـرب وبعدهـا، انهـارت أعمـال نـاس وأفلسـوا ماليًـا، اختفـت وظائفهـم، انهـار اقتصـاد البـلاد، وارتفعـت الأسـعار. وجـدت أعـداد كبيـرة مـن المواطنيـن نفسـها بـلا مـأوى أو مـال. سـنوات مـن الكـدّ والجهـد ذهبـت أدراج الريـاح. هـم فقـدوا القـدرة علـى التفكيـر فـي

من أرشيف «أمم»

مسـتقبل أفضـل. كثيـر مـن العائـلات اضطـرت للبـدء مـن جديـد بـلا شـيء. أقفلـت مصانـع، دُمّـرت أعمـال، والمـواد الغذائيـة الأساسـية انقطعـت. حتـى هـذه اللحظـة، لـم يتعـافَ لبنـان بالكامـل مـن تلـك الأزمـة. اقتصـاد منهـار لا يعنـي الفقـر فحسـب، بل يعنـي اليأس، اللامسـاواة، وجيـلًا أُجبـر علـى البقـاء حيًـا بـدلًا مـن أن يعيـش. الحـروب توقـف الدراسـة، تؤجـل المسـتقبل، هاجـر الموهوبـون، وازداد نزيـف العقـول، فيمـا بقـي الآخـرون بـلا مـوارد كافيـة لتحمـل العـبء.

الأمـر ليـس مجـرد أرقـام وإحصـاءات اقتصاديـة؛ بـل هـو عـن النـاس. عـن الرجـل الـذي لـم يعـد قـادرًا علـى إعالـة أطفالـه؛ عـن الفـلاح الـذي لـم يعـد قـادرًا علـى شـراء البـذور؛ عـن صاحـب الـدكان الـذي لـم يعـاود فتـح متجـره؛ عـن الرجـل الـذي اضطـر لتـرك أفـراد عائلتـه وبلـده فقـط ليتمكـن مـن تأميـن احتياجاتهـم الأساسـية. ثِقـل الحـرب مـا زال حاضـرًا فـي سـوق العمـل اليـوم. إنـه شـكل مـن العنـف يسـتمر طويـلًا بعـد وقـف إطـلاق النـار.

لقـد وُلدنـا بعـد الحـرب، ومـع ذلـك مـا زلنـا نحملهـا بطـرق لا نسـتطيع شـرحها. ورث جيلـي صمتهـا، خوفهـا

وانقساماتها، من دون أن يعرف أسبابها. نشأنا على أسماء أحياء ومناطق قيل لنا ألّا ندخلها، وعلى أشخاص حُذّرنا من الوثوق بهم. حملنا جراحًا لم نتسبب بها، لكن طُلب منا أن نواصل حملها. من دون أن ندرك ذلك، وُلدنا في نظام تُنقَّل فيه الكراهية من جيل إلى آخر، غالبًا بلا سياق، عبر قصص يرويها الكبار الذين سمعوها بدورهم من غيرهم، من دون معرفة أصلها أو حقيقتها. تعلّمنا أن نحذر من أشخاص لم نلتقِ بهم، وأن نرث ثِقلًا لم يكن لنا من البداية.

لكن، انسوا/انسين كل ما سبق. في هذه الذكرى الخمسين لبداية الحرب، اخترت أن أؤمن. أؤمن أنه، شيئًا فشيئًا، يومًا بعد يوم، سنمضي نحو لبنان يحب جميع أبنائه وطنهم ويتطلعون إلى سلام. لبنان لا يتعايش فيه مواطنوه فقط، بل يهتمون ببعضهم البعض بصدق، بعمق، ومن دون خوف.

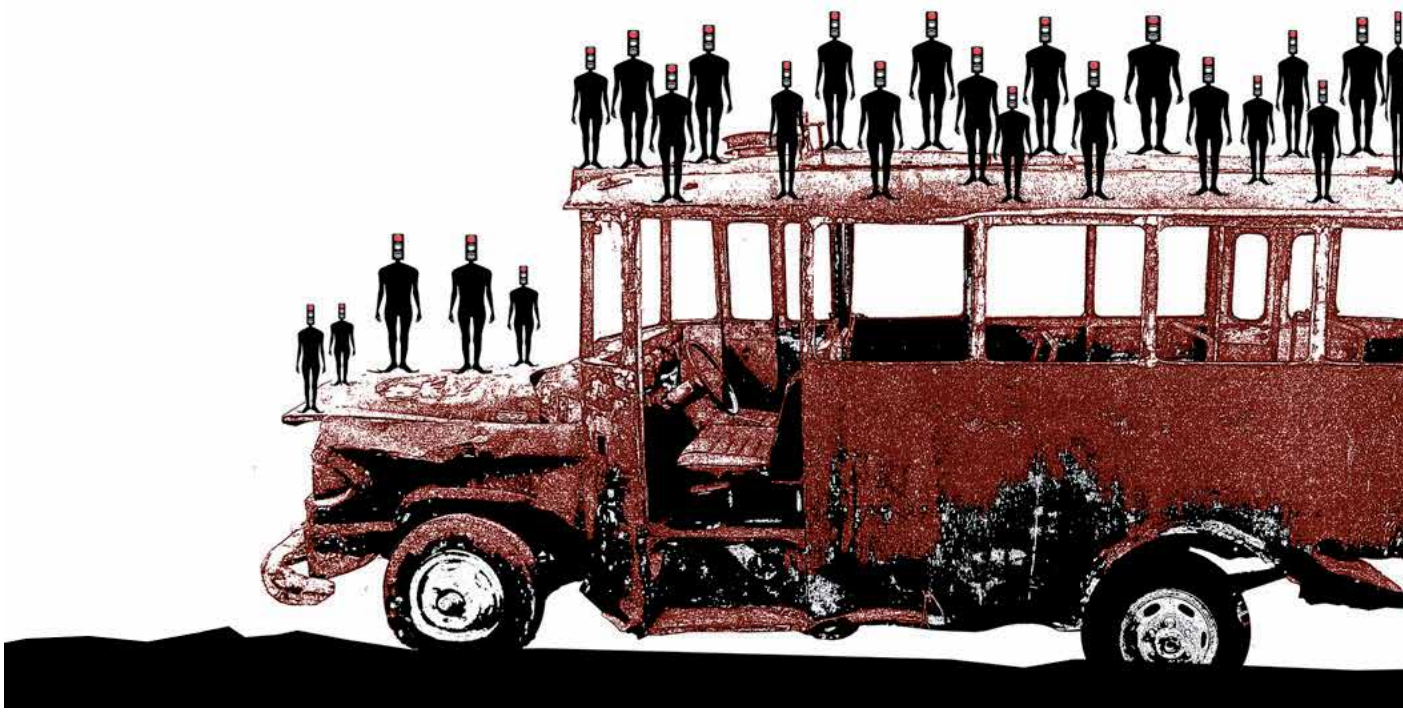

ألعاب حربنا: تبلّد مشاعر الشباب اللبناني تجاه الواقع الاجتماعي - السياسي من حولنا في بيروت

جايد دوماني

شكّلت النزعة العسكرية مكوّنًا مؤسفًا من تفاصيل الحياة اليومية في بيروت مطلع الألفية الثالثة. اغتيال رفيق الحريري، حرب تموز، ومواجهات ٧ أيار لم تكن سوى أمثلة قليلة على سلسلة من الاضطرابات الأمنية في تلك الحقبة التي هزّت اللبنانيين الذين كانوا نجوا من وحشية الحرب الأهلية. ومع ذلك، نحن الذين نشأنا وسط هذا الاضطراب لم نتأثر بالمجازر التي بثّتها شاشات التلفاز بالدرجة نفسها التي اهتزت بها مشاعر أهلنا وأجدادنا حين كانوا في أعمارنا. فبالمقارنة بعقود سابقة، كانت التسعينيات فترة من الهدوء النسبي، وكان ينبغي لأعمال العنف غير المألوفة في مطلع الألفية أن تصدمنا وتهزّ وجداننا، لكننا كنا بشكل غريب لامبالين إزاء التوترات المتجددة.

في الوقت ذاته، كنا الجيل الذي تعرّف إلى مستوى غير مسبوق من الواقعية في ألعاب الفيديو مع بروز الرسومات الثلاثية الأبعاد التي جعلتها تحاكي الحياة الواقعية، على نحو يشبه السينما، ولكن مع عنصر التفاعل الذي منحنا إحساسًا بالقدرة على التحكم داخل سيناريوهاتها الخيالية. ومع دخول ثقافة الإنترنت إلى الفضاء العام، خلصتُ إلى أن هذا التزامن لم يكن مصادفة. حتى وأنا من أشد المعجبين بهذا الوسط منذ زمن، بات واضحًا لي أن الألعاب التي تناولت الحرب والعمليات العسكرية كانت سببًا أساسيًا في تبلّد حساسيتنا، إذ أعادت تشكيل وعينا بالواقع المضطرب من حولنا بطريقة حرّفت إدراكنا للعنف الاجتماعي - السياسي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

مع مطلع العقد، راجت سلاسل الألعاب الاستراتيجية في الوقت الحقيقي (RTS) مثل Age of Empires و Total War وCivilization وCommand & Conquer بين المراهقين من تلاميذ المدارس الخاصة. كان ذلك تحوّلًا واضحًا عن الألعاب الخيالية الكلاسيكية مثل Super Mario Bros أو Sonic the Hedgehog التي نشأنا عليها. ففي هذه الألعاب الجديدة، بدت الاشتباكات كأنها مباريات شطرنج مُمجَّدة، نلقي فيها الوحدات العسكرية على بعضنا البعض لتحقيق مكاسب ضئيلة، غير مبالين بالخسائر الجانبية، وكأن الجنود المكوّنين من بضع بيكسلات ليسوا سوى بيادق في صراع على النفوذ. لم تكن هذه الألعاب تُسخِّف الصراعات الواقعية التي سعت لمحاكاتها فحسب، بل وضعتنا أيضًا في موقع الجنرالات الذين يديرون هذه المعارك، مقلّبة نظرتنا إلى أولوياتهم من حماية الوطن إلى إسقاط العدو، مهما كان الثمن البشري. وصل الأمر مرحلة صرنا فيها نتجادل في المدرسة حول كيفية إدارتنا للعمليات العسكرية، مقارنين بين "إنجازاتنا" الرقمية وبين ما كان يحدث على أرض الواقع.

لكـن الأسـوأ كان قادمًـا. فالتقـدم التكنولوجـي عنـى أنَّ نوعًـا جديـدًا سـيطر على المشـهد مع تقـدُّم العقـد، وهـو ألعـاب التصويـب مـن منظـور المصـوِّب الأول (FPS). ورغـم أن جذورهـا تعـود إلـى سـبعينيات القـرن الماضـي، إلا أن لعبـة Wolfenstein ٣D (١٩٩٢) شـكّلت القالـب الـذي بُنيـت عليـه الإصـدارات اللاحقـة. ثـم جـاءت Doom (١٩٩٣) التـي سـمحت بمباريـات متعـددة اللاعبيـن، ناشـرة هـذه الميـزة على نطـاق واسـع. ومع دخـول عناصـر جديـدة مثـل التمثيـل الصوتـي، والتفاعـل الكامـل مـع المحيـط، والبيئـات الحضريـة، وصلـت هـذه السلسـلة إلـى ذروتهـا مـع ألعـاب مثـل Rainbow Six (١٩٩٩) وCounter Strike (٢٠٠٠)وCall of Duty: Modern Warfare (٢٠٠٨). بما تضمنـت مـن واقعيـة فـي المحـاكاة رفعـت اللعـب إلـى مسـتويات جديـدة. وقـد جذبـت هـذه الألعـاب، لسـهولة الوصـول إليهـا مقارنـةً بالاسـتراتيجيات أو الألعـاب الأقـدم، جموعنـا إلـى مقاهـي الإنترنـت فـي الأحيـاء، حيـث كنـا نقضـي سـاعات طويلـة نضـع الخطـط لاسـتهداف بعضنـا البعـض فـي مقابـل حفنـة مـن الليـرات. وذلـك بـدلًا مـن أن نحمـل ذكريـات طفولـة خاليـة مـن الهمـوم مليئـة بالمغامـرات فـي القـرى أو الحدائـق أو الشـواطئ، صرنـا نتشـارك ذكريات ضبابيـة عـن عمليـات إرهـاب ومكافحـة إرهـاب مُحوَّلـة إلـى لعبـة لا يمكـن تمييزهـا بيـن الواقـع والخيـال.

خـارج كهـوف المقرصنيـن هـذه، كانـت بـلاد الشـام عرضـة لتحـوّلات زلزاليـة تهـدّد وجودنـا، فيمـا كان أهلنـا قلقيـن حيـال مـا يجـب القيـام بـه فـي حـال وقـع الأسـوأ وامتـدّ لهيـب الاضطرابـات المحيطـة إلـى حدودنـا. وبالطبـع تأثرنـا بهـذه المخـاوف، لكـن

نقاشـاتنا حـول المواجهـات التـي اندلعـت كانـت تبـدو مفصولـة عـن قسـوة الواقـع، كأنهـا أرض لعـب وأخـذ ورد فيهـا، نناقشـها كمـا لـو كانـت جـولات فـي لعبـة Red Vs. Blue وليـس مشـاحنات علنيـة بيـن فصائـل متواجهـة. علقنـا فـي التعامـل مـع هـذه المواجهـات الوحشـية كمـا لـو كنـا نشـجع هـذا الفريـق أو ذاك فـي الرياضـة الإلكترونيـة بـدلًا مـن إدراكهـا كإنـذارات واضحـة للانهيـار الـذي كان ينتظرنـا.

لحسـن حظـي وأصدقائـي أننـا لم نعـش الحـرب الأهلية ولـم نتأثـر بتداعياتهـا. لكننـا تبادلنـا روايـة مبسّـطة عنهـا، واحـدة صـوّرت مأسـاة يصعـب تخيلهـا كأنهـا منافسـة شرسـة، بصـرف النظـر عمّـن نشـجّع. غرسـت فينـا ألعـاب الكمبيوتـر هـذه النزعـة التـي تكافـئ "القـوي" علـى حسـاب "الضعيـف"، وكان مـن الصعـب التخلّـص منهـا، خصوصًـا أننـا كنـا نتابـع وقائـع مشـابهة علـى هواتفنـا الذكيـة، منفصليـن وغيـر متأثريـن، عندنـا بـرود يشـبه بـرود تعاملنـا مـع ضجيـج الشاشـات فـي ألعابنـا علـى حواسـيبنا.

لكـن انفجـار مرفـأ بيـروت عـام ٢٠٢٠ كان لحظـة يقظـة مروّعـة. أشـبه بتأثيـر "الطمـس الحركـي" فـي لعبـة

F.E.A.R.. أذكره كاختراق نفسي هشَّم ما تبقّى من أوهامي الطفولية، وأنا أرافق شقيقتي إلى الملجأ متفاديًا الزجاج المحطّم وجيراننا المذعورين، على وقع صرخات والدتي المدوية في الخلفية. بعد عشرات الساعات من رمي القنابل في Medal of Honor، وزرع المتفجرات في Team Fortress، وإسقاط القنابل على المدن في Battlefield، وجدت نفسي مشدوهًا أمام الدمار الحقيقي لانفجار واحد، أمام الإرباك الذي كنت أمارسه يوميًا على أعداد لا تُحصى من "الأعداء" في عوالم افتراضية من أجل الفوز. في ومضة تغيّر كل شيء. شعرت بالرعب الذي تحمّله جيل أهلنا يوميًا، غير قادرين على الهرب، ولا على الردّ، مثل شخصيات ثانوية غير قابلة للحياة في اللعب تُسحق بلا مبالاة في مهمة عادية كنت أتباهى بإنجازها. لم يكن في الأمر أي "متعة". ولم يكن يجب أن يكون كذلك.

وفي اجتياح إسرائيل للبنان عام ٢٠٢٤، فقدت قريبًا لي في إحدى الغارات الجوية على الجنوب، بينما كنت أتابع كل طرف يشجّع تبادل النيران، ويطالب بمزيد من سفك الدماء، وكأن المقاتلين يحققون "سلسلة قتلات" في معركة جماعية على الإنترنت مثل PUBG أو Fortnite. . ليس غريبًا أن نكون بهذا الاستعداد لدعم الميليشيات. لكنني أتساءل: هل سنتمكّن من التعافي من هذا الجرح النفسي الجماعي؟ أنا أعتقد أن أثر هذه الظاهرة مختلف على العرب مقارنة بالأميركيين. ثمة فارق كبير بين محاكاة الفوضى من راحة ضاحية مرَّفهة على الساحل، وبين ممارستها في شقة مدمَّرة وسط مدينة ممزقة بالحرب، حيث المراحل هي إعادة محاكاة لأشخاص وأماكن تعرفها، وحيث الأزمات التي تغذّي السرد الملتهب آذتْك أنت ومَن تحب مباشرة، والخطر فيها واقعي، شديد الواقعية.

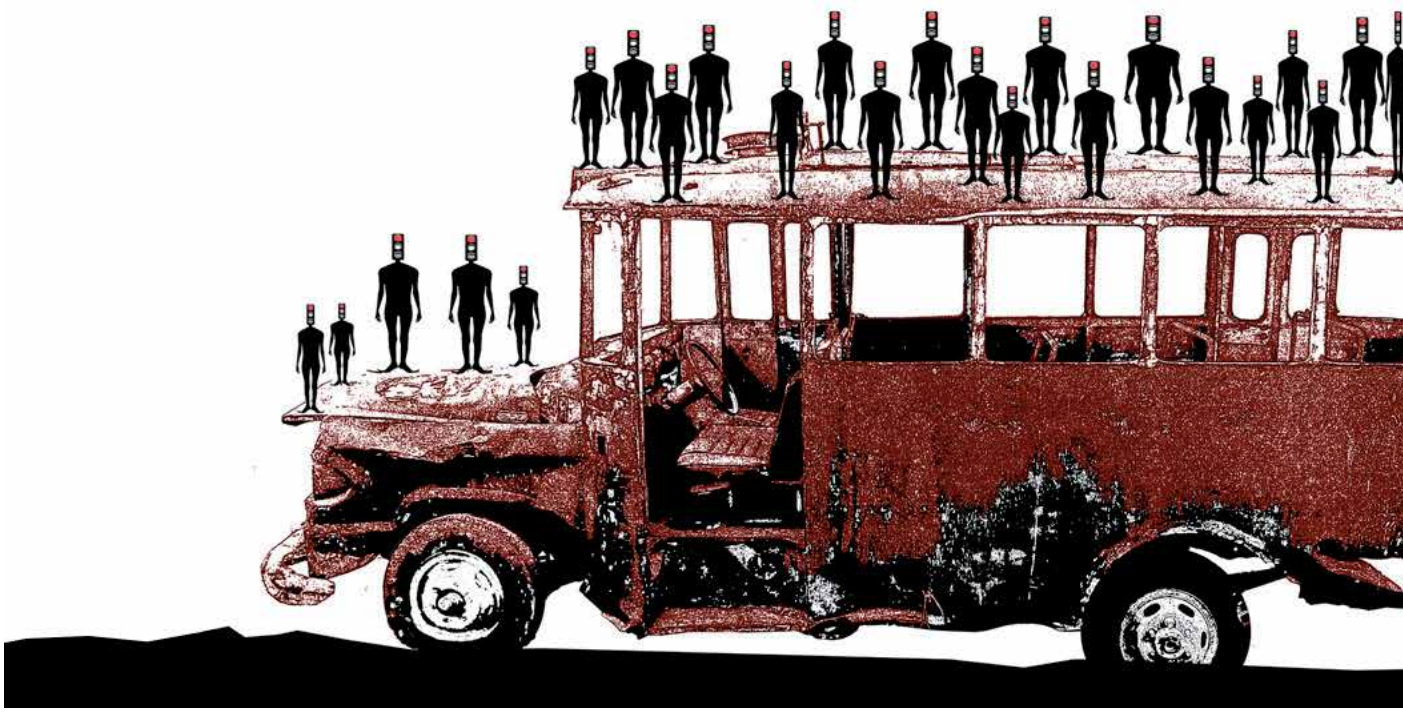

أصداء بعد أن صمتت المدافع

جنى ملاعب

على الرغم من أنني وُلدت بعد سنوات من انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، إلا أن ظلالها لم تغادر بيتنا يومًا. جدّتي أبقت قصص الحرب حيّة، لا كدروسٍ في التاريخ، بل كتحذيرات. من طريقة تخزينها لطعام إضافي، إلى ارتجافها عند سماع باب يُغلق بقوة، أدركتُ أن الحرب لم تنتهِ بالنسبة إليها، ولا بالنسبة إلى أولادها.

ما لم أستوعبه إلا لاحقًا، هو أن الحرب لم تنتهِ بالنسبة إليّ أنا أيضًا.

كانت أمّي مجرّد طفلة عندما مزّقت الحرب عالمها. ففي عام ١٩٨٣، أثناء مجزرة كفرمتى، اضطرت مع أفراد عائلتها إلى الفرار. اختبأوا في مؤخرة شاحنة محمّلة بالبندورة، محشورين بين الصناديق، يداها الصغيرتان تقبضان على ثوب والدتها. ما زالت تتذكر رائحة البندورة المهروسة تحت قدميها؛ لذلك تكرهها حتى اليوم، وترفض حتى شراءها. لم تكن تفهم السياسة آنذاك، ولا مَن يطلق النار ولماذا، كل ما عرفته أنها لم تكن في أمان، وأن طفولتها انزلقت بصمت في الصندوق الخلفي لتلك الشاحنة.

وإلى اليوم، تصرخ والدتي إن رأت سلاحًا ناريًا في التلفاز أو في صورة أو على أرض الواقع. ليس بدافع المبالغة، بل من رعبٍ حقيقي ولا إراديّ. لا تشاهد أفلام الحرب إطلاقًا، فهي لا تستطيع. الألم صاخب جدًا، قريب جدًا، ومنقوش بعمق في جهازها العصبي.

لقد نجَت، نعم. لكن النجاة ليست الشيء نفسه كالشفاء. وبطرقٍ لم أفهمها إلا مؤخرًا، وصلت حربها إليّ أنا أيضًا.

في المدرسة لم نتعلّم شيئًا يُذكر عن الحرب الأهلية. فما زال لبنان يفتقر إلى منهج تاريخي موحّد يتناولها. بعض زملائي كان آباؤهم مقاتلين، آخرون كانوا لاجئين، ومعظمنا عُلِّمنا الصمت حيال الأمرين.

من دون سردية مشتركة، تُرك جيلنا يرقّع ذاكرته من قصص عائلية، وهمسات، وفراغ.

أما حكاية أبي فكانت مختلفة، لكنها لا تقلّ رعبًا. كان مقاتلًا في "جيش التحرير الشعبي"، تدرّب في الاتحاد السوفياتي على أيدي عناصر من الـKGB، ثم أصبح قائدًا. لا يتحدث عن الأمر كثيرًا. أحيانًا أظن أن لديه كلمات دفنها في أعماق نفسه حتى لم يعد قادرًا على الوصول إليها. كل ما أعرفه أنه كان طفلًا زُجَّ به في عالم وحشي، مؤمنًا بأن الأرض أثمن من الإنسان، يحمل بندقية أثقل من جسده، فيما كان غيره من الأطفال يحملون كتبًا. تعلّمت احترام صمته، لكنني تعلّمت أيضًا أن أقرأ ما بين سطوره.

الآثار الاقتصادية للحرب كانت إرثًا آخر نحمله. فبيت أجدادي في كفرمتى أُحرق ليس مرة بل اثنتين، وهما لم يتعافيا ماليًا بالكامل من الأمر. مثل كثيرين ممن هجّرتهم الحرب، أمضيا سنوات

يحاولان إعادة بناء حياتهما من الصفر، يحملان التروما في يد والفقر في الأخرى.

أما الاقتصاد اللبناني بعد الحرب، فلم يُبنَ للتعافي، بل خُصّص لرعاية أمراء الحرب الذين تحوّلوا إلى سياسيين. نظامٌ يزدهر فيه الفساد والمحسوبية، فيما يعاني المواطنون يوميًا. والنتيجة بالنسبة إلى جيلي؟ بطالة متفشية ومُحَلِّقة، بُنية تحتية متآكلة، عملة منهارة، وإدراك مؤلم أننا ما زلنا ندفع ثمن حرب لم نخضها.

لقد غيّر أمراء الحرب بزّاتهم، لا أرواحهم.

نشأنا نرى أهلنا يقتّرون في كل ليرة، يصلّون ألّا تنقطع الكهرباء أثناء الاستحمام، نحلم بالهجرة إلى مكانٍ أكثر استقرارًا. ليس لأننا نريد الكثير، بل لأننا نريد قليلًا من الراحة.

أما النظام السياسي الذي أُرسِي بعد الحرب، القائم على المحاصصة الطائفية، فقد كرّس الانقسامات التي حفرتها الحرب في جسد البلاد. أبقى على نفوذ وجوهٍ أشعلت العنف سابقًا، ونقل ذلك الخلل كأنه لعنة موروثة.

وبالنسبة إلينا، نحن أبناء الناجين والناجيات من الحرب، عزّز هذا النظام شعورًا بالخيانة. يُتوقع منّا المضيّ قدمًا في بلدٍ يحكمه مَن رفض مواجهة ماضيه. نرى الأعلام ذاتها، نسمع الخُطب نفسها، ونسير في شوارع تحمل أسماء رجالٍ كان أهلنا يومًا يخافونهم. ورثنا الصدمة، نعم، لكننا ورثنا أيضًا هوية وطنية متصدّعة، معلّقة بين البقاء وخيبة الأمل.

ومع ذلك، نحن نصمد. ربما لأن علينا ذلك، وربما لأن في داخلنا شيئًا من ذاك الصمود الذي ورثناه.

أفكر بأمّي، تلك الطفلة الخائفة في شاحنة

من أرشيف «أمم»

البندورة، مختبئة، صامتة. وأفكر فيها اليوم، تراقبني أتكلم عن الأمر، تراقبني أكتب هذه الكلمات. هي ما زالت تحمل الحرب في عظامها، لكنني أحمل شجاعتها في عظامي. كم وددت لو احتضنت تلك الطفلة، وأغمضتُ لها عينيها وأذنيها.

لكن ثمة قوة في تسمية ما نحمله.

لقد شكّلت الحرب أهلنا، وشكّلنا أهلنا، والآن عندنا فرصة أن نشكّل شيئًا مختلفًا. قد نعيش مع الأشباح، نعم هذا صحيح، لكن ليس علينا ألا نسمح لها بمطاردة المستقبل.

هناك قصص أعلم أنني لن أسمعها يومًا، فصول من حياة والدّي طُويت قبل ولادتي. أحيانًا، في لحظات الهدوء، أشعر بهما جالسَين في ذاك الصمت، شديدَي

الخوف من طي الصفحة. توقّفت عن طرح بعض الأسئلة، ليس لأنني لا أريد أن أعرف، بل لأنني تعلّمت ثمن التذكّر. حين يسرح والدي طويلًا في الفراغ، أعلم أنه في مكان لا أستطيع اللحاق به. وحين تطفئ أمّي الأخبار في منتصف النشرة، أعلم أنها لا تهرب من ضوضاءٍ عابرة، بل من ذاكرة.

لقد علّماني أن البقاء على قيد الحياة قد يعني أحيانًا الصمت. لكنني تعلّمت أيضًا أن الشفاء يبدأ بتسمية ما نخشى قوله. وربما، يومًا ما، عندما يلين الحزن، سيتركان الكلمات تنساب. وربما، يومًا ما، سنجلس معًا كأفراد أسرة، نفتح تلك الفصول المغلقة، ونُضمّد جراحهما.

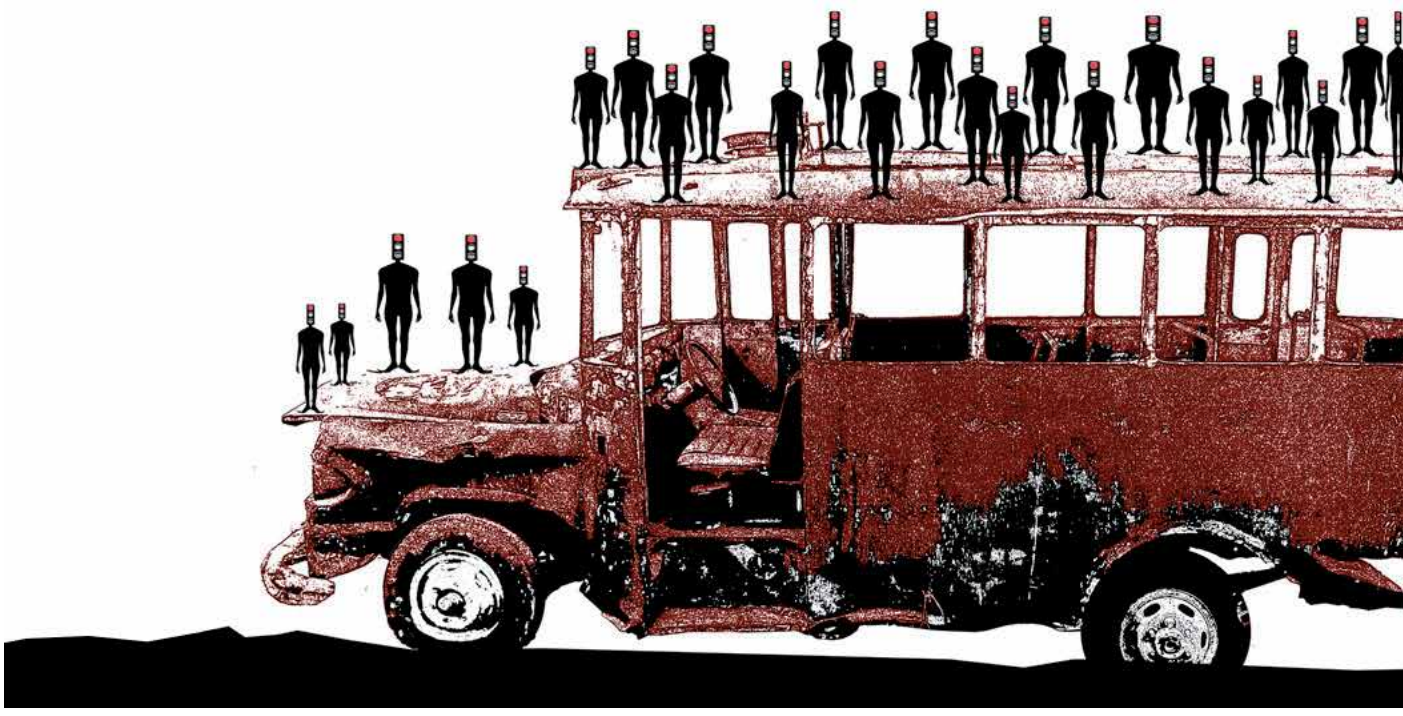

القصص التي نرثها: الحرب، الذاكرة وحاضر لبنان المتصدّع

جويل أبو ناضر

نشأتُ في ظلّ الحرب الأهلية اللبنانية، أنتمي إلى جيلٍ لم يعش الصراع مباشرةً، لكنه ورث ندوبه العميقة وسرديّاته المتنافسة. بالنسبة إلى كثيرين منّا، أعادت المواجهة الأخيرة بين "حزب الله" وإسرائيل فتح جراح قديمة، وأثارت أسئلة ملحّة حول مستقبل بلدٍ ما زال منقسمًا بالتاريخ والهوية، وطرحت في الوقت ذاته رؤى جديدة تتحدّى الموروث وتفتح أبوابًا لاحتمالات التغيير. هذا الصراع على السرديات ليس سياسيًا فحسب، بل شخصيّ بعمق، إذ يرسم ملامح نظرتنا إلى أنفسنا وإلى مجتمعاتنا، وإلى ما تبقّى من احتمال هزيل للسلام. وكما في الحرب الأهلية بين ١٩٧٥ و١٩٩٠، ما زالت المجتمعات اللبنانية حادّة الانقسام على أساس طائفي. هذا النص يحاول أن يستكشف كيف تُصاغ هذه السرديات، وما إذا كان في رواية القصص القدرة على ردم الهوّة المتّسعة بين اللبنانيين.

بعد الصراع الأخير، برزت مقاربتان أساسيتان بين الشباب، وكلتاهما متأثرة بإرث الحرب الأهلية اللبنانية ـ حرب الخمسة عشر عامًا التي وسمتها الطائفية والتدخلات الخارجية والتشرذم العميق ـ وبالقصص الموروثة عبر الأجيال. هذه الذاكرة ليست تاريخًا مؤرشفًا، بل هي حيّة في العائلات والمجتمعات، لتشكّل وعي الشباب بأنفسهم ومكانهم في الوطنِ. بعضهم، متأثرًا بسرديات المقاومة، يرى في قتال "حزب الله" في مواجهة إسرائيل امتدادًا ضروريًا لذلك النضال. آخرون، وقد أثقلتهم عقود من العنف، لا يرون إلا الوجع وخراب، ويرغبون فقط في نهاية الحرب بالمطلق. أمّا بالنسبة إليّ، فهذه السرديات المتنافسة ليست بعيدة، بل هي خيوط تنسج حياتنا اليومية، تحدّد مَن نثق به، ومَن نخافه، وما إذا كان يمكننا أن نتخيّل مستقبلًا سلميًا.

في الضاحية الجنوبية لبيروت، حوّلت ناشطات شابات، تتراوح أعمارهنّ بين ١٦ و٣٠ عامًا، دمار الغارات الإسرائيلية إلى فعلٍ للتعبير السياسي. استخدمن الجداريات لرسم صور قائد "حزب الله" الراحل السيّد حسن نصرالله على جدران الضاحية. بالنسبة إلى كثير منهن، لم يكن الأمر مجرّد فن، بل وسيلة لاستعادة شعور بالانتماء والأمل وسط الفوضى، إعلانًا قويًا أن صوت مجتمعهنّ لن يُمحى رغم الخراب.

في الشمال، احتشد طلاب الجامعة اللبنانية تضامنًا مع غزة، مدينين العدوان الإسرائيلي وداعين إلى الوحدة الوطنية. كذلك نظّمت المجالس الطلابية التابعة لـ"حزب الله" اعتصامًا تضامنيًا في مجمّع الحدث الجامعي، حيث رفع الطلاب شعارات داعمة لفلسطين ومنددّة بالانتهاكات الإسرائيلية. في مشاهدة هذه التظاهرات وغيرها، بدا جليًا أن "حزب الله" ما زال يحتلّ مكانة رمزية كحصن ضد التدخل الأجنبي ومصدر فخر لفئات واسعة. هتافات الطلاب ولافتاتهم ذكّرتني بمدى تغلغل سرديات المقاومة في وجدان الشباب اللبناني،

وقد انتقلت إليهم من أحيال سابقة عاشت الحرب والاحتلال.

لكن بالنسبة إليّ ـ وإلى كثيرين ممّن نشأوا على سماع قصص الحرب الأهلية ـ فإنَّ الرغبة في تجنّب حرب جديدة ليست سياسية فحسب، بل هي نداء نابع من صدمةٍ موروثة من عائلاتنا والخوف الدائم من تكرار الماضي. في بلدٍ ينهكه أصلًا الانهيار الاقتصادي والشلل السياسي، تبدو فكرة صراع آخر لا تُحتمل.

يمكن رؤية ذلك في مناطق أخرى من بيروت، حيث انتشرت ملصقات تحمل رسائل مثل: "كفى، تعبنا. لبنان لا يريد الحرب". هذه اللافتات تعبّر عن معارضة متنامية بين الشباب لدور "حزب الله" العسكري. حتى داخل البيئة الشيعية، التي طالما شكّلت حاضنة "حزب الله" الأساسية، تتزايد مشاعر القلق مع اتّساع رقعة الدمار والنزوح. هذا الانقسام أعاد تذكيري بإلى أيّ مدى ما زال إرث الحرب الأهلية يقسمنا، ويضع الشباب بين روايات موروثة وواقع قاسٍ يتشكّل أمام أعينهم.

رأيت قصصًا ـ نُشرت على الإنترنت، تمَّ الهمس بها في مقابلات، أحياناً متخفية وراء رسوم متحرّكة أو أسماء مستعارة ـ يرويها لبنانيون وسوريون يرفضون الحرب بوضوح. قال أحدهم: "هذه العداوة وهذه الحرب كلّفتنا غاليًا." هذه العبارات ليست مواقف سياسية وحسب، بل تجارب معاشة، تتحدى فكرة النزاع من أساسها. ومع خروج مزيد من هذه الشهادات إلى السطح وحصولها على الاهتمام، لا أستطيع إلا أن أشعر أنَّ التوتّر يتصاعد. فهذه القصص لا تكشف فقط حقائق مخفيّة، بل تبرز أيضًا إلى أي مدى صار فهمنا للصراع مسكورًا.

في أحد أجزاء بيروت، تحتضن مقبرة روضة الشهيدين في الضاحية الجنوبية ما يقارب المئة قبر لمقاتلين شبان من "حزب الله"، قضوا في مواجهات مع إسرائيل أو في سوريا إلى جانب قوات الأسد. شواهد قبورهم تتزيّن بشرائط صفراء كُتب عليها "شهداء على طريق القدس". هناك، تزور العائلات ـ ولا سيّما الأمهات الثكالى ـ أبناءها بانتظام، في طقوس تجمع بين الحزن والفخر. إحدى الأمهات فقدت ابنها، وهو أب لولدين في الثلاثين من عمره، في غارة إسرائيلية على عيتا الشعب. لا تتطلع إلى في موته بندم، بل تراه تضحية نبيلة في سبيل الأرض والإيمان.

في مشهد آخر، زارت طبيبة أحد الملاجئ الحكومية محاولةً مواساة أرملة حديثة الفقد، لكن الأخيرة باغتتها بالقول: "لا تُعزّيني... هنّئيني". اعتبرت استشهاد زوجها مصدر فخر. هذا الرد فاجأ الزائرة وعكس هذا التباين بين الحزن والفخر.

هـذه اللقـاءات الشـخصية تُبـرِز عمـق الانقسـام بيـن الـرؤى الدينيـة والسياسـية، إذ حتـى فـي لحظـة الفقـد، تظـلّ المجتمعـات اللبنانيـة منفصلـة برؤياهـا وإيمانهـا العميـق بشـأن معنـى التضحيـة والهويـة. هكـذا يتحـوّل بطـل فـي روايـة عائلـة إلـى مصـدر ألـم أو انقسـام لعائلـة أخـرى، بمـا يبيّـن كيـف تشـكّل السـرديات المتباينـة نظرتنـا بعضنـا إلـى بعـض، وغالبًـا مـا تكـرّس التباعـد بـدل أن تردمـه.

هـذه السـرديات المتنافسـة لا ترسـم فقـط طريقـة فهمـي للحاضـر، بـل تؤثـر أيضًـا علـى رؤيتـي للمسـتقبل. فـإذا بقيـت تلـك الروايـات متصلّبـة ومتنافـرة، فإننـا نخاطـر بتكـرار دوامـة العنـف التـي صنعـت ماضـي بـلادي. لكـن إذا تعلّمنـا أن نصغـي عبـر الانقسـامات، وأن نعتـرف بـكلٍّ مـن الألـم والأمـل، فقـد يكـون هنـاك فرصـة لمسـتقبل مختلـف: مسـتقبل تجمعنـا فيـه هـذه القصـص بـدل أن تقرّقنـا.

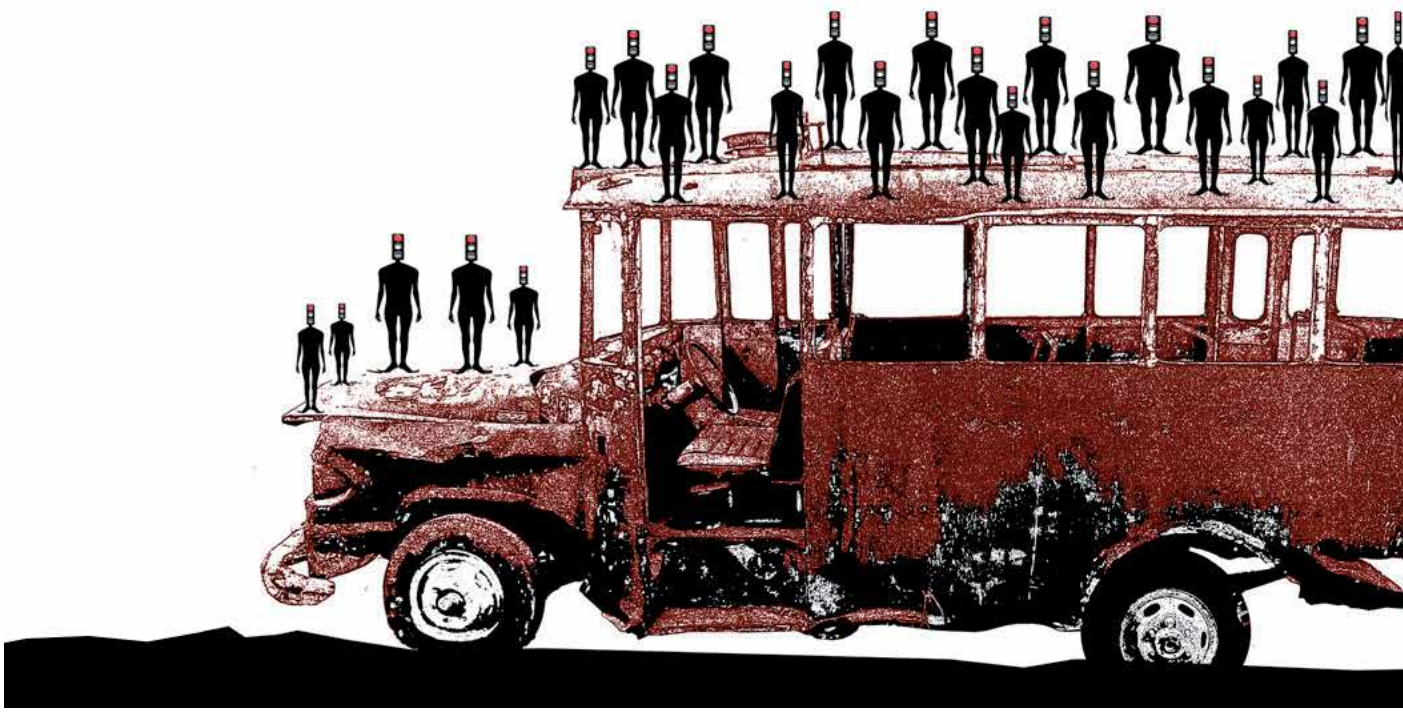

فسيفساء الانتماء

غِوى الفخري

كانت صِلتي بالذاكرة، المصالحة وبناء السلام شخصية جدًا في بدايتها. في الجامعة، تمسّكت بقوة برواية واحدة عن الحرب، تلك التي ورثتهُا عن عائلتي ومجتمعي وانتمائي السياسي. منحتني هذه الرواية يقينًا، منحتني هوية. لكن سرعان ما انكشفت أمامي طرق مختلفة لرؤية الماضي. من خلال انخراطي في العمل الاجتماعي ومشاريع عابرة للطوائف، التقيت أقرانًا حملت قصصهم ما يهزّ روايتي الخاصة. اصطدمت حقائقهم بما آمنتُ به دومًا. حينها بدأت أطرح أسئلة عن جذور هويتي ومعتقداتي السياسية.

لم تكن هذه اليقظة سلميّة. كانت مؤلمًة، مربكًة، ومسبِّبة للوحدة. ومع كل تجرؤ على عبور الحدود الوهمية التي ما زالت تقسّمنا – حدود الذاكرة، الولاء والخوف – كنت أواجَه بمقاومة. فقدتُ صداقات. اتُّهمت بأني أصبحت غريبة بأفكار خطرة، وربما حتى سامة. فضولي الذي كان يُحتفى به يومًا، صار يُنظر إليه كتهديد. صرتُ "مبالغة" عند البعض، و"ضعيفة" عند آخرين. وحتى أنا، في لحظات كثيرة، تساءلت: لماذا أفعل هذا؟

لكن كلما استمعت أكثر، أدركت هشاشة فهمنا لماهية الحقيقة. بدأت أجمع فسيفساء من القصص، شظايا ذاكرة متناثرة عبر المشهد اللبناني. كل لقاء، مؤلمًا كان أم مبهجًا، أضاف قطعة جديدة. شيئًا فشيئًا، أيقنت أن الحقيقة ليست واحدة. إنها طبقات متشابكة، متناقضة، ومزعجة أحيانًا. لكن في هذه التوترات قد تبدأ عملية الشفاء.

واحدة من أصعب الحقائق التي كان عليّ تقبّلها هي العنف النفسي الحاضر حتى اليوم. هذا العنف ليس جسديًا، بل أكثر مكرًا وخفاء. يتجلّى في الإقصاء، الصمت، السخرية، وفي العار. يظهر حين يحاول أحدهم التعبير عن وجهة نظر مختلفة فيُوصم فورًا بالخيانة. يتجلّى حين نُربّى على الطاعة بدل السؤال، على الامتثال لا التفكير، على عدم تجاوز الخطوط التي رُسمت قبل أن نولد بزمن.

بالكثير من المعاني، نحن ما زلنا في حرب؛ داخل أنفسنا ومع بعضنا البعض.

أعرف أنَّ الاستقطاب السياسي بين اليمين واليسار اليوم ليس حكرًا على لبنان. في العالم كله، تتشكّل صراعات جديدة تُغذّيها الأخبار المضلّلة وحقائق متنافسة تخدم كل منها أجندة مختلفة. كلا، لسنا الضحايا الوحيدة. كثير من الشباب حول العالم يعانون. لكن ما يجعل وضع لبنان مؤذياً على وجه الخصوص هو أننا لم نبرأ بعد من حربنا الخاصة. تلك الذاكرة غير المشفية تركت أجيال الحرب وما بعدها أمام تطور عنيف: ميل إلى إلغاء الآخرين، إلى رفض آرائهم وآلامهم ومعاناتهم. وهذا أيضًا عنف.

فهمت اليوم أنَّ المصالحة ليست فقط عن وحدة وطنية أو اتفاقات سياسية. إنها عن إيجاد مساحة

للمعقّد والمتناقض. إنها عن السماح للآخرين بالوجود في ذاكرتنا حتى لو تحدّت حقائقُهم رواياتنا. إنها الاعتراف بوجود جروح لم نتسبّب بها، لكننا نحملها. جروح ورثناها بالصمت.

لا أكتب هذه السطور لأن لدي إجابات، بل لأن لدي أسئلة. أسئلة عن مَن يملك حق الانتماء في هذا البلد. عن مَن يعرِّف تاريخنا. عن إمكان بناء مواطَنة لا تقوم على الخوف ولا على النسيان.

أؤمن أنَّ الشباب قادرون على قيادة هذا التحوّل، إذا مُنحوا المساحة ليشعروا، يعبّروا ويتذكّروا بلا خوف. لكننا اليوم كثيرًا ما نُطالَب بأن نكون محايدين، لا سياسيين ومنفصلين. حتى حين نشهد ظلمًا، يُطلب منّا التزام الصمت "حفاظًا على السلام". لكن سلامًا بلا عدالة ليس سوى شكل آخر من أشكال القمع. الصمت ليس حيادًا. إنه تواطؤ.

لا أدّعي أنني تجاوزت تحيّزاتي أو آلامي. ما زلت أحمل ثقل خلفيتي. ما زلت أعاني في التوفيق بين حبّي لمجتمعي والضرر الذي تسببه رواياته، خاصة تجاه الشباب الذين لا يتبنونها. حتى داخل طائفة دينية واحدة، هناك انقسامات عشائرية، عائلية وأيديولوجية. ومن يجرؤون على معارضة السردية السائدة يواجهون بدورهم آليات الصمت نفسها. الدائرة تعيد نفسها.

من أرشيف «أمم»

لكنني أحاول. أستمع. وأتعلّم.

وربما هذا ما يحتاجه البلد: المزيد من الأشخاص المستعدين للإصغاء. المزيد من المساحات التي تسمح للشباب بمصارعة ذاكرتهم دون عقاب. المزيد من الشجاعة للقول: "لا أعرف كل شيء"، وأن نجلس مع هذا اللا-يقين.

في النهاية، كل ما أريده حقًا هو أن أنتمي—إلى لبنان، إلى مجتمع الباحثين عن الحقيقة، إلى مستقبل لا يُستبعَد فيه أحد لمجرد التجرؤ على السؤال: "هل هناك طريقة أخرى للتذكّر؟"

هل هذا كثير؟